أبو البقاء الرندى
ونونيته فى رثاء الأندلس

عصر وشاعر :

جاء أبوالبقاء مع آخر أيام الموحدين فى الأندلس، وعاصر وقعة العقاب (١) المشئومة على حد تعبير المقرى ، وجرت عام ٦٠٩ هـ = ١٢١٢م، وترد فى المدونات الإسبانية تحت اسم Las Navas de Tolosa ، وكانت هزيمة الموحدين فيها ساحقة ، وأدت إلى طردهم من الأندلس بعد أن ضعفت قوتهم ، وعجزوا عن حمايته ، وتراجعوا أمام النصارى فى شماله ، وتركت صدى أليما على امتداد العالم الإسلامى كله، وكانت فى حقيقتها لقاء بين المسيحية والإسلام.

كان الجيش المسيحى فيها بقيادة ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، ويضم جنوداً من أرجون بقيادة ملكها ،وجاءت نبرة بملكها أيضاً ، والبرتغال بفرق من فرسان المعبد ، إلى جانب جماعات من الصليبيين الفرنسيين والإيطاليين ؛ ومن وراء هؤلاء جميعاً البابا إنوسينسيو الثالث ، يشجع ويخطط ، يهب الجنة ، ويمنح البركات . وكان يقود الجنود المسلمين الملك الناصر بنفسه ، محمد بن المنصور، أمير الموحدين ، وبلغ عددهم ست مئة ألف ،فداخله الإعجاب بكثرة من معه ، وأخطأ التدبير ، فكانت الدائرة عليه، وخلا بسببها أكثر المغرب من السكان ، واستولى النصارى على أكثر الأندلس ، ولم ينج من الست مئة ألف مقاتل غير عدد يسير جداً ، وعاد الناصر بعدها إلى مراكش ، وفيها مات كمداً عام ٦١٠ هـ = ١٢١٤ م ، « ولم تقم بعدها للمسلمين قائمة تحمد ».

كانت الهزيمة ساحقة إذن ، وحاول المؤرخون المسلمون أن يتبينوا أسبابها علمياً ، فردها عبد الواحد المراكشى فى كتابه « **المعجب فى تلخيص أخبار**

---

(١) مكان قرب حصن سالم بين جيان وقلعة رباح .

المغرب » إلى اختلاف قلوب الموحدين ، لأن الأمير تأخر فى دفع مرتبات الجند، وخصوصاً فى هذه السفرة ، فخرجوا إلى الحرب وهم كارهون ، فبلغنى من جماعة منهم ، أنهم لم يساوا سيفا ، ولا شرعوا رمحا ، ولا أخذوا فى شئ من أهبة القتال ، بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم ، قاصدين لذلك ، وثبت أبوعبد الله هذا (يريد الناصر أمير الموحدين) فى ذلك اليوم ، ثباتاً لم ير مثله قبله ، ولولا ثباته لاستؤصلت تلك الجموع كلها قتلا وأسراً » .

ويردها الحميرى فى كتابه « الروض المعطار » ، والمقرى فى كتابه « نفح الطيب » ، إلى أن الأمير أخطأ التدبير حين أساء إلى الأندلسيين ، وهم العارفون بقتال الإفرنج ، استخف بهم ، وشنق بعضهم ، ففسدت النيات ، وتفرقت الكلمة . ويضيف ابن خلدون إلى هذا كله سبباً آخر ، وهو خيانة ملك ليون حليف الناصر ، وتخليه عنه فى اللحظة الحرجة .

أما النصارى ولم يكونوا يحلمون بنصر كهذا فأرجعوا الأمر كله إلى المعجزات : فأحد الرهبان الذين شاركوا فى المعركة ، وقاتل فيها ، كان يرفع الصليب ، وتوجهت إليه ستون سهماً فلم تصب منه مقتلا ، وأحد الفلاحين كان يتقدم المقاتلين يقودهم ويرشدهم ، وبعد أن أدى دوره فى المعركة اختفى ولم يظهر له أثر ، وكان الله يرد نيران المسلمين عليهم ، ويذكر المؤرخون الفرنسيون أن النصر يعود إلى عذراء روكامدور ، وجاءت من فرنسا بمعجزة وكانت وراء الانتصار ، وأن الصليب ظهر فى السماء طوال أيام القتال ، وأن راهباً شق طريقه وسط الجيش الإسلامى يحمل صليب المطران دون أن يصيبه أذى ، وأن قتلاهم فى المعركة يتراوحون بين ٢٥ و ٥٠ قتيلا ، وأن المئتى ألف مسلم الذين قتلوا فى المعركة لم تسح منهم نقطة دم واحدة .

كان أبو البقاء فى الثامنة من عمره تقريباً حين حدثت وقعة العقاب ، وليس ثمة شك أن صدى المهانة التى لحقت بالمسلمين ظل يتردد بعدها

لسنوات طويلة ، وأن فداحة أحداثها اختلطت مع الأيام بالأساطير والقصص ، وتسرب ذلك كله إلى أعماقه ، فكان إحساسه وجيله بالمأساة أليما فادحاً ، وزاد من قسوة ذلك أنها كانت الخطوة الأولى فى طريق طويل انتهى بسقوط دولة الإسلام فى الأندلس .

وشهد فى شبيبته أبا عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامى يحاول فى مدينة مرسية وما حولها عام ٦٢٥ هـ = ١٢٢٧ م ، أن يجمع شمل المسلمين ليواجه بهم النصارى فى الشمال ، فلم يسعفه الحظ ، ولم تواته الفرصة ، و ذلك الوقت كان القشتاليون يقيمون زعيما مسلماً ليحارب زعيما آخر مسلماً أيضاً ، فيتحطم الاثنان معاً ، فوضعوا ثقلهم إلى جانب **محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر** ؛ وهو عربى أصيل ، من قبيلة الخزرج الشهيرة فى المدينة ، فأقام لنفسه دولة حول غرناطة ، أتيح له فيها إلى حد ما أن يُحيى عظمة إشبيلية على أيام بنى عباد ، وظلت غرناطة على مدى قرنين ونصف من الزمان حامية حمى الإسلام فى صراعه الدفاعى ضده قوة المسيحية الصاعدة فى الأندلس .

وأمضى **أبو البقاء** زهرة حياته فى عهد الأمير محمد (١٢٣٢ — ١٢٧٣م) ، وكان يلقب بالغالب بالله ، وهو الذى أسس الدولة ، وأقام دعائمها ، وجعل غرناطة عاصمتها ، وبنى الحمراء ذات الشهرة العالمية على أنقاض قلعة أموية قديمة ، وعاصر شيخاً تجاوز السبعين من عمره اللقاء الحاسم بين الأندلسيين والمرينيين من جانب ، والقشتاليين بقيادة **دون نونيو دى لارا** Don Numo de Lara صهر ألفونسو العاشر الملقب بالعالم ، ملك قشتالة ، من جانب آخر . وكان المسلمون بقيادة السلطان المرينى **أبى يوسف يعقوب** الذى باشر القتال بنفسه وجعل ابنه على المقدمة ، وكان انتصار المسلمين فى الموقعة حاسما ، أعاد إلى أذهان الأندلسيين ذكريات موقعتى **الزلاقة والأراكة** المجيدتين لقد هزموا الجيش القشتالى ، وتشتت جنده ، وقُتل قائده ، ولكن ماعجز

القشتاليون عن تحقيقه فى ميدان الحرب حققوه عن طريق الدسيسة فى مجال السياسة ، فأوقعوا بين الأميرين الغرناطى والمرينى ، غير أن عقلاء المسلمين سرعان ما انتبهوا إلى الأمر ، وتجاوزوا دفاعاً عن وجودهم عما وقع بين الأميرين من خلاف ، وتفاهم المغاربة والأندلسيون ، وأصبحت مالقة قاعدة لبنى مرين ، ومحطاً لقواتهم التى تعبر إلى الأندلس مجاهدة ، ونزحت مجموعة من خيرة المغاربة للإقامة فيه لتكون على أهبة الاستعداد دوماً ، ودخلت التاريخ تحت اسم مشيخة الغزاة ، وكان رئيسها يعرف باسم « شيخ الغزاة » .

ومع ذلك يؤخذ على محمد الأول مؤسس مملكة بنى نصر ، أنه كان يذهب فى مهادنة النصارى واتقاء شرهم حداً مهيناً ، يدفع لهم الجزية ، ويأخذ رضى صاحب قشتالة فيما يفعل ، ويعينه بالجند والسلاح حين يقاتل غيره ، وفى سنة ٦٤٣هـ = ١٢٥٤م صالح ملك قشتالة ، وعقد معه معاهدة سلم تنازل بمقتضاها عن عدد من المدن والحصون والقلاع ، من بينها جيان ، وشريش ، والقلعة ، والمدينة ، وغيرها .

فإذا تركنا الحرب والسياسة إلى الفكر والأدب والثقافة ، وجدنا الموحدين يقفون إلى جانبها ، ويشجعون عليها ، و إن اهتموا بالعلوم العملية والفلسفية بخاصة ، فازدهر الطب على أيامهم ، وأنشأوا المدارس الحربية ، وعرف الأندلس عدداً من علماء النبات ، وشهدت الفلسفة أوج عصرها ، إنه العصر الذى عاش فيه ابن باجة وابن طفيل وابن رشد ، ومن بين أروع ماحققوه فى هذا المجال وسبقوا إليه الدعوة إلى التزام المفكر بمنهج فكرى معين ، يصدر عنه فيما يقول ويعتقد ويدعو ، لا يحيد عنه مع الهوى ، ولا يميل به مع الريح ، فقد أخذ علماء الأندلس ، فيما يروى ابن خلصون على الغزالى ، « أنه خلط النهاية بالبداية ، فصارت كتبه أقرب إلى التضليل منها إلى الهداية » ، ويزيد ابن طفيل الأمر تفصيلا فيقول : « وأما أبو حامد فإنه مضطرب التأليف ، يربط فى موضع ويحل فى آخر ،

ويتمذهب بأشياء ويكفر بها »،(١) ويأخذ عليه ابن رشد أنه « لم يلتزم طريقة في كتبه ، فنراه مع الأشعرية أشعرياً ، ومع المعتزلة معتزليا ، ومع الفلاسفة فيلسوفا ، ومع الصوفية صوفياً ، حتى كأنى به :

يوماً يمان إذا لاقيتَ ذا يمنٍ وإن لقيتَ معدياً فعدنان »(٢)

وبقى الأدب في الذروة فناً ، وإن إدى به الترف إلى الانحطاط في بعض ماعالج من موضوعات ، وانهارت سلطة الفقهاء على أيام الموحدين ، ومنعوا جملة من التدخل فيما لا يعنيهم من شئون الدولة ، ثم أخرجوا من الأندلس (٣) ، غير أن الإسلام الأندلسى ، على حد تعبير غرسية غومث ، « كان يأكل آخر زاده »(٤).

واختلفت مملكة غرناطة في هذا المجال عما سبقها ، فقد غادر الأندلس كثيرون قبل قيامها ومعه ، تناثروا في أفريقية أو المشرق ، يبحثون عن الأمن وراحة البال ، أو يطلبون الشهرة ونباهة الذكر ، وجاءها مئات آخرون من العلماء والفقهاء والأدباء ، وفدوا من مختلف المقاطعات التى سقطت في يد النصارى ، ولكن الأندلس كان قد أوفى على غايته ، إجادة وإبداعاً وأصالة ، فظلوا يعيشون على تراث الأعصر الذاهبة ، يفصلون المجمل ، ويجملون المبسوط ، ويحررون الهوامش على الشروح ، وأصبح الشعر بعامة « معانيه شاحبة ومعروقة ، غير أن أشكاله الرائعة لم يصبها أى تلف . نعم ، لم يبق ثمة عسل في الشهد ، ولا زهور حوله ، ولكن بعض نحلات تخلفتْ ، تمسح الخلايا الفارغة وتلمعها ، على نحو لم يحدث يوماً (٥) » ، وكان أبو البقاء واحدا منها .

---

(١) فصل ابن طفيل اتهامه هذا ، ومن أراده كاملا فليرجع الى : ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٦٥ ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦٦ .

(٣) لدراسة هذه القضايا تفصيلا يمكن العودة الى : الدكتور حكمة على الاوسى ، الادب الاندلسي في عصر الموحدين ، القاهرة ١٩٧٩ .

(٤) الشعر الاندلسى الترجمة العربية ، ص ٦٥ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٦ .

(٥) غرسية غومث ، مع شعراء الاندلس والمتنبي ، ترجمة د . الطاهر أحمد مكي ، ص ٢٢٨ ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٣٩٨ — ١٩٧٨ .

جاء أبو البقاء واسطة العقد بين جيلين من الشعراء : مجموعة سبقته تنتمى إلى عصر الموحدين ، وأبرز شعرائها أبو جعفر بن سعيد وحفصة الركونية . وعرضنا لهما فى موضع آخر من هذا الكتاب ، وأبو بكر بن زهر ، المتوفى ٥٩٦ هـ = ١١٩٩ م ، واشتهر وشاحاً أكثر منه شاعراً ، وأبو بحر صفوان بن إدريس ، صاحب كتاب « زاد المسافر » والمتوفى عام ٥٩٨ هـ = ١٢٠٢ م . وآخرون كثيرون مقلون شعرا ، أو ضاع إبداعهم مع الزمن ، أو فى مرتبة غير عالية منه . وبين طبقة أخرى تلته ، وكان لها طابع أنغامه فى الرسيقا ، وتلتقى معه فى عدد من الموضوعات دارت حولها قصائدهم . وفى مادة التصوير نفسها ، بعضهم يقف معه على خط واحد ، والآخرون سبقوه ، على الأقل فى ضوء ماوصلنا من شعره ، وهم ليسوا كثيرون على أية حال ، ويجئ فى مقدمتهم ابن خاتمة شاعر المرية ، وخصته المستشرقة الإسبانية الفاضلة الدكتورة سوليداد خيبرت Soledad Gibert بدراسة عميقة وجيدة ، وترجمنا نصها إلى العربية فى هذا الكتاب . وابن زمرك (١) ، وابن الخطيب أخيراً ، وبعد هؤلاء الثلاثة بدأت شمس الشعر الأندلسى ، مع دولة الإسلام نفسها ، تنحدر نحو الغروب .

أما الذين عاصرهم من الشعراء فعلا فهم : أبو عبد الله محمد بن أدريس المعروف بمرج الكحل ، المتوفى عام ٦٣٤هـ = ١٢٣٦م ، وابن سهل الإشبيلى ، المتوفى عام ٦٤٩ هـ = ١٢٥١ م ، وعلى بن سعيد المغربى ، المتوفى ٦٧٣هـ = ١٢٧٤ م ، وكان إلى جانب الشعر مؤرخاً ومؤلفاً . وثمة آخرون كانت تصطخب بهم الحياة فى إشبيلية ، عاصمة الموحدين ، وأرجح أنه التقى بهم ، أو ببعضهم فى الأقل ، ورندة لاتبعد كثيراً عن إشبيلية . وعاصر أيضاً ابن الأبار الشاعر والمؤرخ ، وصاحب قصيدتى الاستصراخ اللتين عرضنا لهما من قبل ، ولا أظنهما تلاقيا ، لأن ابن الأبار من

---

(١) ربما كانت أفضل دراسة لابن زمرك ، حتى هذه اللحظة ، هى التى قام بها غرسية غومث ، وترجمناها الى العربية ، أنظر : مع شعراء الاندلس والمتنبى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨ .

بلنسية ، وفارق الأندلس إلى تونس مع سقوط مدينته فى يد النصارى عام ٦٣٦ هـ = ١٢٣٨ م . وأرجح أن أبا البقاء عرف قصيدتيه ، إن لم نقل الكثير من شعره ، وأنه استوحاهما فى نونيته التى سنعرض لها فيما بعد .

● **مصادر دراسته :**

حتى زمن قريب كان أبو البقاء الرندى شاعراً مغموراً لا يتحدث عنه الناس إلا حين يذكرون نونيته ، فإذا تحدثوا وقفوا عندها معجبين متأثرين أو ناقدين مقومين ، أو محللين يستخرجون النتائج والأسباب ، ولا يتجاوزونها إلى حياته نفسها لأنهم لا يعرفون عنها إلا القليل . وربما كان المقرى مسئولاً عن هذا إلى حد بعيد ، فرغم أنه أورد قصيدته كاملة ، فى كتابيه **نفح الطيب** ، **وزهر الرياض** ، ونقل عنه أبياتاً أخرى متفرقات ، وجاء له بقصيدة ثانية مطولة ، لم يشر إلى حياته بحرف واحد ، وحين يسكت المقرى صاحب الموسوعة الأندلسية الكبرى يحتذى الناس خطاه مسلمين .

كان المؤرخ المصرى الكبير الأستاذ **محمد عبد الله عنان** أول من حاول أن يمزق حجب الصمت حول هذا الشاعر الأندلسى ، فتحدث مطنبا عن عصر الرجل ، وموجزاً عن حياة الشاعر ، فى الجزء الأول من كتابه « **نهاية الأندلس** » ، وهى خطوة كان من الضرورى أن تتلوها خطوات ، فى ضوء ماينشر من مخطوطات كانت مغمورة ، أو ينتهى إليه البحث العلمى من كشوفات ، غير أن الأمر وقف عند دراسة الأستاذ عنان ، ولم يتجاوزه أحد ، إذا استثنينا تعريفاً موجزاً بالشاعر ، وتعليقات مفيدة على قصيدته ومؤلفاته ، أتى بها البحاثة المغربى الأستاذ **عبد الله كنون** ، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وهو يعرف بكتاب أبى البقاء « **الوافى فى نظم القوافى** » ، فى مقال له بصحيفة المعهد المصرى

للدراسات الإسلامية فى مدريد (١) .

والترجمة الوحيدة الوافية نسبيا لأبى البقاء ، أوردها **ابن الخطيب** فى كتابه **الإحاطة فى أخبار غرناطة** ، المجلد الثالث بتحقيق محمد عبدالله عنان ، ونُشر فى مصر للمرة الأولى عام ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م ، واعتمد فيها ابن الخطيب على جانب مما أورده **ابن الزبير** ، المتوفى عام ٧٠٨هـ = ١٣٠٨ م ، فى كتابه « **صلة الصلة** » ، وعلى **ابن عبد الملك** ، المتوفى عام ٧٠٣ هـ =١٣٠٥ م ، فى كتابه « الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة » (٢) ، وأتى على أخبار تتصل بحياته ، وبمقتطفات عديدة من شعره ، لانجدها فى نسخة الذيل التى بين أيدينا ، لأن ترجمة أبى البقاء فيها غير كاملة ، سقط آخرها ، وعدد آخر بعده من التراجم . (٣)

● **حياته :**

نعرف مما أورده لنا ابن الخطيب أن أبا البقاء ولد فى محرم من سنة ٦٠١هـ= سبتمبر ١٢٠٤ م ، وتوفى عام ٦٨٤هـ= ١٢٨٥ م ، يذكر ذلك صراحة ، وليس

---

(١) المجلد السادس ، ص ٢٠٥ — ٢٢٠ ، عام ١٣٧٨ هـ — ١٩٥٨ م .

(٢) **الكتاب** في ثلاثة أجزاء ، نشر ليفى بروفنسال الجزء الثالث منه ، في الرباط عام ١٣٥٦ هـ — ١٩٣٧ ، وهو مبتور الأول ، وعثر أخيرا على هذه الأوراق المبتورة ، واوراق من الوسط والآخر ، في مكتبة القرويين بفاس ، وتحمل نحبيس الكتاب على الخزانة ، ولكنه اختلس منها زمن الفوضى والاستبداد ، وتحمل هذه الأوراق تاريخ نسخ الكتاب وهو ٦٩٧ هـ — ١٢٩٧ م ، أى في زمن المؤلف نفسه ، ولايستبعد المؤرخ المغربى عبد السلام بن سودة المربى أن تكون بخط المؤلف ذاته . ويوجد بدار الكتب المصرية النصف الأول من الجزء الثانى مخطوطا

انظر : عبد السلام بن سودة ، دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، ج ١ ص ٢٧٧ ، الطبعة الثانية ، الدار البيضاء ، ١٩٦٠ م .

(٣) توجد مخطوطاته موزعة على عدد من مكتبات العالم ، ومن سنوات بدأ الدكتور احسان عباس في نشر ما تيسر له منها ، نشر السفر الخامس كاملا ، والقسم الثانى من السفر الأول بتحقيق الدكتور محمد شريفة ، وقسم من السفر الرابع .

(٤) الذيل والتكلمة ، بقية السفر الرابع ، نشر احسان عباس ، الترجمة رقم ٢٦٣ ، ص ١٣٦ — ١٣٩ .

مع النص اجتهاد ، أى أنه عاش قريباً من اثنين وثمانين عاماً، أدرك معها أوائل إمارة محمد الثانى ، وطالت حياته حتى لامست القرن الثامن الهجرى ، وشهد من الدولة أيام استقرارها ، و إن لم تكن على مايتمنى لها الأندلسيون من القوة والثبات.

واسمه كاملاً ، اعتماداً على ابن الخطيب أيضاً: صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبى القاسم بن على بن شريف النفزى ، ويُكنى عنده أبا الطيب. ويكنيه المقرى أبا البقاء ، وهى الكنية التى اشتهر بها ، وشرقت وغربت رفق نونيته ويبدو أن له أكثر من كنية ، ولم يكن وحيداً فى هذا ، فقد أشار ابن الخطيب إلى والده فى موضعين ، كناه بأبى الحسن فى واحد، وكناه بأبى خالد فى الثانى منهما . ونعرف من هذا النسب أنه نفزى ، ونفزة قبيلة من البربر ، ولكنها تذهب بأنسابها إلى حمير فى اليمن .

ونعرف من لقبه أنه من رندة ، وهى مدينة قديمة ، على قمة جبل مرتفع ، بها آثار كثيرة ، ويشقها نهر ينسب إليها ، وتحيط بها الوديان من كل جانب ، وأتاح لها ذلك كله أن تكون فى أحوال كثيرة شبه مستقلة ذاتياً، وقامت فيها خلال عصر الطوائف ، كغيرها من كبريات المدن وإن لم تكن كبيرة ، إمارة مستقلة على رأسها بنو إفران ، وهم ينحدرون أيضاً من أصول بربرية ، ودام حكمهم لها عشرين عاماً . وخلال الدولة النصرية كان هناك من يلوذ بها ثائراً أو هارباً أو متوثباً ، ومن بين كل مدن الأندلس لما تزل تحتفظ فى حاضرها المعاصر بروح عربى واضح ، فى المبانى والشوارع وحياة وأخلاق الناس ، وزرتها أكثر من مرة ، فما أحست بما أحس به المتنبى قبل أكثر من ألف عام وهو يزور شعب بوان.

وحياة أبى البقاء ، حتى وهو فى طور الرجولة ، وتحت أضواء الشهرة ، تجىء غامضة ومجملة ، فلا نعرف شيئاً عن أسرته ، أبيه وأسلافه من قبل ، ولا عن بنيه وزوجه ، والحنان العائلى غائب فى شعره تماماً . ونعرف من الإشارة إلى شيوخه ، وسنعرض لهم فيما بعد ، أنه أمضى شطراً من صباه فى إشبيلية يدرس على الدباج

وابن الحد ، وأقام بمالقة زمناً درس فيه على ابن الفخار الشريشي ، وقرأ على ابن الزبير صاحب كتاب « الصلة » ، وتلقى العلم في غرناطة على ابن قطرال وابن زرقون ، وظل يتردد على عاصمة الإمارة حتى بعد أن نضج وتجاوز مرحلة الطلب ، يسترفد ملوكها ، وينشد أمراءها ، ويذكر أبو عبد الله اللوشي ، شيخ لسان الدين بن الخطيب ، أنه نظم قصيدته التي مطلعها :

أواصلتي يوماً وهاجرتي ألفا ... وصالُك ما أحلى، وهجرك ما أجفا(١)

باقتراح السلطان يعارض قصيدة ابن هانئ ، وأمره ألا يخرج من بساتين القصر الملكي قبل أن يكملها . وقد جاء في طالعة كتابه « الوافي في نظم القوافي » : « قال الشيخ الجليل ، الفقيه القاضي أبو الطيب . . . » ، واستنتج منها العالم المغربي الأستاذ عبدالله كنون أنه ولي منصب القضاء ، ولا أراه حتما ، فقد يلحق به اللقب وجاهة ، أو لأن الذين حوله يقصدونه لحل مشاكلهم إخاءً ووداً ، دون أن يكون قد ولي المنصب رسمياً .

وندرك من أشعاره أن حياته لم تكن سهلة ميسرة ، ولا تسير على وتيرة واحدة ، وأنما تعاورتها لحظات سعيدة وأخرى مضنية ، وتوارد عليه النجاح والإخفاق فتغزل سعيداً ، وشكا الليل مهموماً ، وألغز في أشعاره خلي البال يتسلى . ونفهم من شعره أنه كان يتردد على السلطان محمد الغالب ويمدحه ، وأن جفوة قامت بينهما ، وأنه ابتعد عن البلاط النصري زمناً ثم عادت الأمور إلى طبيعتها ، واتصل مديحه من جديد :

نأيتُ عنه اضطراراً ثم عدتُ له ... كما اقتضى المُبْرِمان الحلُّ والسفر
فإن قضى الله أن يقضى به أملي ... فحسبي المُحْسِبان الظلّ والثمر

(١) وهي قصيدة طويلة ، واوردها ابن الخطيب كاملة ، انظر : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ — ٣٦٥ . والفقرة الخاصة بشعر أبي البقاء من هذه الدراسة .

ويبدو أنه تغرّب كثيراً ، ونلمح هذا واضحاً فى شعره ، وسنعرض له حين نتحدث عن شاعريته ، وتعرض لأزمات مالية قاهرة ، وعانى من الفقر أشده ، وتمنى الموت على حياة هذه حالها ، واكتشف أن المال يستر العيوب ، وأن الفقر يكشفها :

وقد لذ الحمامُ وطابَ عندى ... وعيشى لا يلـذُّ ولا يطيبُ
لَحَى اللهُ الضرورةَ فهى بلوى ... تهين الحرَّ والبلوى ضروب
رأيتُ المالَ يسترُ كل عيبٍ ... ولا تخفى مع الفقـرِ العيوب
وفَقْدُ المالِ فى التحقيق عندى ... كفَقْدِ الروحِ ذا من ذا قريب

وهى غربةٌ ليس مردها أيام الطلب فى إشبيلية أو مالقة ، وإنما جاءته أواخر حياته فيما يبدو ، لأننا نجده فى القصيدة نفسها يحن إلى الصبا ، وإلى الشباب على السواء ، وأثارها فى نفسه حادث لم يفصح عنه :

ومما هاج أشـواقى حديث ... جرى فجرى له الدمعُ السكوبُ
ذكرتُ به الشبابَ فشقَّ قلبى ... ألم تر كيف تنشقُّ القلـوبُ
على زمن الصبا فليبكِ مثلى ... فما زمنُ الصبا إلا عجيب
جهلتُ شبيبتى حتى تولَّتْ ... وقدرُ الشىء يُعرَفُ إذ يغيب

ويبدو أنه كان فى غربته يلتمس عيشاً أفضل لم يبلغه ، وحياة أطيب لم تواته ، فهو يعتذر لنفسه بأنه لم يدع من جهده شيئاً ، وأن أمور العيش لا تخضع لمنطق ولا تجرى على قياس ، وأن العاقل بها لاحظ له ، كأنها تعادى كل أريب ، وأن الحظ وراء كل نجاح ، ومع غيبته تصبح حسنات المرء سيئات :

وقد أجهدتُ نفسى فى اجتهادٍ ... وما إنْ كلُّ مجتهدٍ مصيبُ
وقد تجرى الأمورُ على قياسٍ ... ولو تجرى لعاش بها اللبيب
كأن العقل للدنيا عدُوٌ ... فما يقضى بها أرباً أريبُ

إذا لم يُرزق الإنسانُ بختاً فما حسناته إلا ذنوبُ

ولكن . . أين كانت غربة أبى البقاء هذه ؟ لم يفصح عنها ، غير أننا نعرف أنه عاش فى مدن مملكة غرناطة الكبرى كلها ، إشبيلية ومالقة وغرناطة ورندة ، طالباً أو ناشئاً أو مترد دا ، وفى كل الحالات كان يتحرك رَجُلاً على رقعة صغيرة فى أيامه ، هى كل مابقى للمسلمين فى الأندلس ، ولا يعد معها فى حركته غريباً يشكو ، أونائياً يحن ، لأنها فى أقصى أطرافها على مسافة أيام قليلة من أى مكان يشتاق إليه . وقد نفهم من اعتذاره للسلطان فى أبيات سبقت بأن الغربة هى التى نأت به بأنه كان خارج بلاده ، وهوما يمكن أن نفهمه أيضاً من الأبيات التالية يتحدث فيها عن نفسه غريباً يحن إلى بلاد لا يضيع بها الأديب ، رائقة الطبيعة ، طيبة الهواء ، خلف فيها حبه وقلبه ، وإذا استثنينا هذا الأخير ، فبلاد الأندلس كلها سواء فى ألوان الطبيعة وتقدير الأديب :

ألا ذكر الإلهُ بكل خيرٍ بلاداً لا يضيع بها أديبُ
بلادٌ ماؤها عذب زلالٌ وريحُ هوائها مسك وطيبُ
بها قلبى ، الذى قلبى المعنىّ يكاد من الحنين لـه يذوبُ

أين كان إذن ؟ بدءا أستبعد أنه ذهب إلى الجانب المسيحى من الأندلس ، رغم أن العلاقات السياسية بين غرناطة وجيرانها كانت فى فترات كثيرة قوية ومسالمة ، والجزية التى كان يدفعها محمد الغالب لقشتالة جعلت منه تابعاً لها من حقه أن يكون عضواً فى برلمانها ، (الكورتس Cortes) ، ومن حقه أن يحضر اجتماعاته ، ورغم أن هذه البلاد كانت حتى تلك اللحظة عامرة بالمسلمين الذين حملوا اسم المدجنين Los Mudejares ، ويسهمون بنشاط فعال فى حركة الحياة اليومية ، من اقتصاد وزراعة ومعمار وفن وثقافة ، بعيداً عن السياسة ومشاكلها ، لأن قصيدته هذه ، وواقع حياته بعدها ، لا يشى بشىء من هذا على الإطلاق .

م يبق إذن إلا أن نفترض أنه عبر المضيق إلى العدوة الأخرى إلى مغرب بنى مرين ، أرجح هذا حدساً وليس معى من الوثائق ماأعتمد عليه ، ولا من الإشارات مايدعم ظنى ، غيرما استنطقته من أبياته السابقة ، ومن ظاهرة أخرى لا أجد لها ، ولم يجد غيرى ، تفسيراً ، وهى أن نونية أبى البقاء ، وفى مجملها إدانة لحكام الأندلس وتحريض عليهم ، لم ترد ، كما سنرى ، فى أى مصدر أندلسى رغم شهرتها ، وكان كتاب الذخيرة السنية ، فى تاريخ الدولة المرينية ، العبد حقية » المصدر الوحيد الذى جاء بها كاملة ، وهو كتاب مغربى مؤلفا ومادة ، وعنه نقلها المقرى التلمسانى ، وهو مغربى أيضاً . أتراه باح بها هناك ألماً ممضا لم يستطيع أن يتفوه به هنا ؟ ربما . ومع ذلك ، فما أراه مجرد ظن ألقى به ، دار بخاطرى ، لم أستطع له طردا ولا نفياً ولا تأكيداً ، وأدع الوثائق ترجح أوتؤكد فى قابل الأيام أحد الاحتمالين .

وصفوة القول فى أبى البقاء ، أوجزها لنا ابن الزبير ، وكان أستاذا له على نحوما : « كان فى الجملة معدوداً من أهل الخير ، وذوى الفضل والدين » ، ويضيف ابن عبد الملك : وكان نبيل المقاصد متواضعاً ، مقتصداً فى أحواله .

● شيوخه :

قد يلعب الأستاذ دورا كبيراً فى حياة الطالب ، توجيهاً نحو منهج محدد ، وترغيباً فى مادة معينة ، وإيثاراً لسلوك خاص ، وذلك حين يملك الأستاذ وسائل التأثير من العلم والاستقامة وحب الطلاب ، يكون أهلاً للاحتذاء ، وأراه مفيداهنا أن نعرف شيئاً عن شيوخ أبى البقاء ، وقد جهلنا الكثير عن حياته ، وسنلمح من سلوكهم ، ومن مواقفه وإبداعه ، أنهم تركوا فيه أثراً باقياً .

أورد لنا ابن الخطيب طائفة من شيوخ أبى البقاء ، ولا نعرف على التأكيد إذا كان قد جاء بهم على سبيل الحصر ، أوجاء بالكبار منهم إجمالا ، ولم يقدم لنا ماذا درس هؤلاء ، وماذا تلقى الطالب على أيديهم من مواد ، وأول مايذكر

منهم أبا الحسن يزيد ، والد أبى البقاء ، وهو أمر بدهى ، ولكنى لم أجد له ذكراً فى أى من المصادر الأندلسية الأخرى ، ويبدو أن مشيخته لابنه اقتصرت على تعليمه الابتدائى ، مما درج الأطفال فى الأندلس على تعلمه فى الكتاب ، على يد معلم خاص ، أو من آبائهم أنفسهم ، إذا كانوا على شىء من ثقافة . وهو مالا يعدو القراءة والكتابة وتجويد الخط ، وحفظ أجزاء من القرآن الكريم ، وشىء من الشعر ، وقليل من النحو .

والثانى من شيوخ أبى البقاء هو **الدباج** ، هكذا ذكره ابن الخطيب ، دون كنية تسبقه أو لقب يلحق به ، ولكنه لا ينصرف حين يجىء هكذا إلا إلى **أبى الحسن على بن جابر اللخمى الإشبيلى** ، وُلد سنة ٥٦٦هـ = ١١٦٩م ، وكان علماً فى إشبيلية ، أديباً وعالماً وصالحاً ، وأماما فى فنون العربية ، يقرئ كتاب سيبويه ، والقراءات السبع ، وشهر بتدريس كتب الأدب ، كالكامل للمبرد ، ونوادر أبى على القالى ، وما أشبه ذلك . وتتلمذ عليه عدد من شعراء الأندلس وكتابه ، من بينهم **على بن موسى** ، مكمل كتاب « **المغرب فى حلى المغرب** » ، ومؤلف كتاب « **المقتطف من أزاهر الطرف** » ، **والغصون اليانعة فى شعراء المائة السابعة** » ، و« **المرقص والمطرب** » ، و« **الطالع السعيد فى أخبار بنى سعيد** » و« **رايات المبرزين** » وغيرها . ومن تلاميذه أيضاً الشاعر الرقيق **ابن سهيل الإشبيلى** .

وكان إلى جانب هذا أستاذاً فكهاً ، لطيف المعشر ، حلو الروح ، قريباً إلى نفوس طلابه ، يتندر معهم ، ويصحبهم للنزهة خارج إشبيلية ، وينشدهم شيئاً من أشعار لطيفة تجىء عفو الخاطر ، فيها ظرف ورقة ، وبريئة من أوزار شعر العلماء فى سخفه ونظمه ورتابته وثقل دمه ، وذات يوم خرج يتنزه مع طلابه ، وأحضرت لهم مجبنات (١) « ماخبا نارها ، ولا هدأ أوراها ، فما خام عنها

---

(١) المجبنات نوع من العجائن المحشوة بالجبن ، ثم تنضج على النار وتاكل ساخنة ، وكانت ذائعة في الأندلس ، وتتردد كثيرا في الشعر الاندلسى .

ولا كف ، ولا صرف حرّها ، عن اختضابها ، البنانَ والكف . فقال فيها :

أحلى مواقعها إذا قرّبتها　　وبخارُها فوق الموائدِ سامِ
إنْ أحرقتْ لمساً فإن أوارَها　　فى داخل الأحشاء بردٌ سلام

« وقال أحد تلامذته لغلام جميل الصورة : بالله أعطنى قبلة تمسك رمقى ، فشكاه إلى الشيخ وقال له : ياسيدى ، قال لى هذا كذا ، فقال له الشيخ : وأعطيته ماطلب ؟ ، فقال : لا ، فقال له : ماهذه الثقالة ، أما كفاك أنك حرمته حتى تشتكى به أيضاً » ! .

وكان يتذوق الشعر الجيد ، يطرب لسماعه ، ويشجع على قوله ، وكان الشاعر الوشاح أبو بكر ابن الصابونى ينشده موشحاته ، يسمعها منه غير مطنب ولا معلق ، فلما أسمعه الدور التالى من موشحة له ، صاح به مردّداً « لله درُّك »! ، والأبيات رقيقة حقاً :

قسماً بالهوى لذى حِجْرِ　　ماالليلِ المشوقِ من فَجْرِ
خَمَدَ الصبحُ ليس يطردْ
ماالليلى فيما أظنُ غدْ
صحّ ياليلُ أنّك الأبدْ
أو تقصّتْ قوادمُ النسرِ　　فنجومُ السماء لا تسرى

وقد أعجب على بن سعيد بالبيتين التاليين من شعر شيخه ؛ فأوردهما له فى الكثير من كتبه ، كالمغرب ، ورايات المبرزين ، والقدح المعلى ، وربما فى غيرها ، وعنه بالتأكيد نقلهما المقرى فى نفح الطيب :

لمّا تبدتْ وشمسُ الأفق بادية　　أبصرتُ شمسين من قُربٍ ومن بُعدِ
من عادة الشمس تعشى عينَ ناظرها　　وهذه نورها يَشفى من الرّمدِ

وأورد له الرعينى الإشبيلى الأبيات التالية ، فى الترجمة التى خصه بها فى برنامجه :

ماجـاءَ عفوًا فخـذهُ ... ومـا أبـى فتجنَّبْ
ولا تَرِدْ كـلَّ مرعى ... ولا تَردْ كـلَّ مشـرَبْ
فـربَّما لـذَّ طعم ... وفيه سـمٌّ مُقَشَّـبْ

وهى أبيات كما ترى من الحكم المنظومة، وأورد له ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة أبياتاً أخرى، وبعضها يتكرر فى المصادر التى عرضت له. ويغلب على جانب كبير منها طابع شعر العلماء.

وكان إلى جانب هذا شيخاً جليل القدر، مشهوراً بالفضل، قدمه أهل إشبيلية للصلاة بهم فى جامع العدبَّس، وهو من المساجد الكبيرة والشهيرة، وتوفى فى آخر حصار إشبيلية، يوم الأربعاء لتسع بقين من شعبان، عام ٦٤٦هـ= ١٢٤٨ م، وكان من دعائه ألا يخرج عنها، وألا يمتحن بما امتحن به من عاش بعده عند إخراج العدو لأهلها، فكانت وفاته قبل استيلاء العدو عليها بتسعة أيام، ولم يحضر الصلاة عليه إلا ثلاثة نفر، لما حل بالناس يومئذ من من الموت وباءً وجوعاً. ويقول ابن السراج إنه توفى عند دخولهم لم يمهل، ودُفن بداره، وحُفر قبره بالسكاكين استعجالاً لمواراته، واشتغالاً عن التماس آلات الحفر بهول اليوم. ويرى ابن الأبار فى كتابه التكملة أنه «تُوفىَ بعد دخول الروم البلد صلحاً بنحو من ثمانية أيام، هاله نطق النواقيس، وساءه خرس الأذان، فمازال يتأسف ويضطرب ارتماضاً لذلك إلى أن قضى». وهى رواية يوهن من أمرها أن تحويل مساجد إشبيلية إلى كنائس لم يحدث لحظة الفتح مباشرة، وإنما جاء تدريجاً مع الزمن، وأن الأذان لم يختف دفعة واحدة، لأن المسلمين ظلوا فى المدينة سكاناً لزمن طويل.

وثالث الشيوخ، بترتيب ابن الخطيب، هو **ابن الفخار**، أورد اسمه هكذا، ثم ترجم له فى مكان آخر من الإحاطة، وأعطى عنه معلومات لا بأس بها، واسمه: محمد بن عبد الرحمن . . . بن الفخار الجذامى، ويكنى أبا بكر، وأصله من

مدينة أركش Arcos ، وهى حصن أندلسى قديم على نهر لكّه ، على مقربة من مدينة شريش ، ولما استولى العدو على قصبتها خرج منها إلى هذه ، فاستوطنها ، وقرأ على كبارشيوخها وهم كثير ، وروى عن علمائها وهم جلة ، ثم أقرأ بها ، ولما استولى العدو عليها لحق بالجزيرة الخضراء ، فقرأ بها ودرّس ، ثم عبر المضيق إلى سبتة وصنع بها الشيء نفسه ، يتعلم ويعلم أيان يمضى ، ورجع إلى الأندلس ثانية ، وذهب إلى غرناطة ، فأخذ عن علمائها ، ثم استوطن مالقة فى نهاية المطاف ، **وتصدر للإقراء بها** .

كان ابن الفخار متنوع المعارف ، من فقه وعربية وقراءات وأدب وحديث ، عظيم الصبر ، مُستغرَق الوقت ، يدرّس من لدن صلاة الصبح إلى الزوال ، ثم يسند ظهره إلى طاقة المسجد بعد ذلك فيقرىء ، وتأتيه النساء من خلفه للفتيا ، فيفتيهن إلى نصف ما بين العصر والعشاء الأولى ، ثم يأتى المسجد الأعظم بعد الغروب ، فيقعد للفتيا إلى العشاء الآخرة ، من غير أن يقبل من أحد شيئاً ، ومارئى فى وقته أورع منه . وكان يتخذ رومية مملوكة ، لا يشتمل منزله على سواها ، فإذا أنس منها الضجر للحصر وتمادى الحجاب أعتقها . وأصحبها إلى أرضها .

وكان مغرماً بالتأليف ، فألف نحواً من ثلاثين كتاباً فى فنون مختلفة ، فى التفسير والحديث والقراءات والفتوى والنحو ، ويستدل الإشارة من بينها كتابه « **الجواب المختصر المدوم فى تحريم سكنى المسلمين ببلاد الروم** » .

وإلى ذلك كان شاعراً ، وشعره كثير ، وفيما يرى ابن الخطيب « غريب النزعة ، دالٌ على السذاجة ، وعدم الاسترابة والشعور ، والغفلة المعربة عن السلامة ، من ارتكاب الحواشى ، واستعمال الألفاظ المشتركة التى تتشبث بها أطراف الملاحن والمعاريض ، وولع كثير من أهل زمانه بالرد عليه ، والتمالح بما يصدر عنه » ، ولم يورد له ابن الخطيب غير أبيات ثلاثة فى وصف الوردة ،

رآها خير ما عنده ، وأراها نظماً مصنوعاً ، ثم بيتين من الشعر ، قالهما ولما يزل طالبا فى شريش ، أنشدهما فى فتى وسيم فى حانوت سراج ، يقابل باب المسجد ، يرقم جلداً كان فى يده ، وألح عليه الطلبة ألا يبرح الباب قبل أن يقول فيه شيئاً فأنشدهما :

وربَّ معــذّر للحب داعٍ   يروق بهــاءُ منظره البهيجِ

وشى فى وجنتيه الحسنُ وَشْياً   كوَشْيِ يدَيْه فى أدم السروجِ

ونشأت بينه وبين فقهاء مالقة خصومة ، فى أمور أدى إليها اجتهاده فى مناط الفتوى ، وعقد لهم أمير المسلمين بالأندلس مجلساً ، فظهر عليهم ، وتجلى فى إقحامهم ، وكانت محنة خلصه الله منها ، وبلغ من تعظيم الناس إياه ، وانحيازهم إليه ، مبلغاً لم ينله مثله ، وانتفعوا بتعليمه ، واستفادوا من أدبه ، على نُسْكه وسذاجته .

ويصفه **ابن الخطيب** فى كتابه « **عائد الصلة** » بأنه « كان رحمه الله خيراً صالحاً ، شديد الانقباض ، مغرقاً فى باب الورع ، سليم الباطن ، كثير العكوف على العلم والملازمة ، قليل الرياء والتصنع » . وتوفى بمالقة عام ٧٢٣ هـ = ١٣٢٣ م ، وكانت جنازته مشهورة .

ورابع شيوخه **ابن قطرال** ، وكالعادة لم يزد ابن الخطيب عن هذا شيئاً ، لكنه ترجم له فى الأحاطة فى مكان آخر من الكتاب . أورد اسمه كاملا : محمد بن على بن محمد . . . بن قطرال الأنصارى ، وذكر أنه من مراكش ويكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن قطرال . وأورد قائمة وافية بشيوخه فى المغرب والأندلس ، ولم يشر إلى مجالات تخصصه ، وأشار إلى أن شعره كثير بديع » ، غير أنه لم يورد منه شيئاً ، سوى بيتين مصنوعين رد بهما على بيت من الشعر كتب له به القاضى أبو بكر بن شبرين ، ويبدو أن أبا البقاء لقيه وتلقى

عنه حين جاء غرناطة لمدة ليست طويلة فيما يبدو ، ويصفه ابن الخطيب فى « عائد الصلة » ، بأنه : « كان رحمة الله فاضلا صوفياً ، عارفاً ، متحدثاً ، فقيها ، زاهداً ، تجرد عن ثروة معروفة ، واقتصر على الزهد والتخلى ، وملازمة العبادة ، والغروب عن الدنيا ، وله نظم رائق ، وخط بارع ، ونثر بليغ ، وكلام على طريقة القوم ، رفيع الدرجة عالى القدر». وشرح قصيدة ابن سهل الإشبيلى ، « وتجول فى لقاء الأكابر على حال جميلة من إيثار الصمت ، والانقباض والحشمة »، ورحل إلى المشرق حاجاً عام ٧٠٣ هـ = ١٣٠٣ م ، ثم تُوفِّىَ هناك بحرم الله ، عاكفاً على الخير وصالح الأعمال ، معرضاً عن زهرة الحياة الدنيا ، عام ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م .

وخامس شيوخه **أبوالحسين**(١) **بن زرقون** ، ولم يورد عنه ابن الخطيب شيئاً ، ولكن الرعينى فى برنامجه أورد له ترجمة لا بأسَ بها ، فهو محمد بن محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد البر الأنصارى . ويصفه ابن الأبار فى كتابه « التكملة » ، بأنه « كان فقيها مالكياً حافظاً مبرزا ، متعصباً للمذهب قائماً عليه ، حتى امتحن بالسلطان من أجله ، واعتقل مدة بسبتة » .

وكان من مفاخر إشبيلية ، وبها ولد عام ٥٣٩ هـ = ١١٤٤ م ، وكتب فى شبيبته لأحد ولاة إشبيلية ، وتولى القضاء فى بعض مدنها .

كان يدرس الحديث ، وله تأليف فى الجمع بين الصحيحين ، وآخر فى « تهذيب المسالك لمذهب مالك » ، وتأليف كبير سماه « المعلى فى الرد على المحلىّ والمجلىّ »، **وكان يقرىء قصيدة ابن عبدون فى بكاء بنى الأفطس » ويحدث بها عن أبيه ، عن ناظمها** ، ويدرس المقامات ، فقد كان مليئاً من الأدب ذاكراً له ، واختصر كتاب الأموال لأبى عبيدة .

وكان من أحسن الناس خلقاً ، وأجملهم إشارة ، وأشدهم تواضعاً ،

---

(١) فى الاحاطة ٣ ، ص ٣٦٠ ، ابو الحسن ، وهو خطأ .

وكف بصره فى آخر عمره ، وتوفى على أحسن عمل من تدريس العلم ، ضحوة يوم السبت ٤ من شوال سنة ٦٢١ هـ = ١٢٢٤ م ، بداره التى وُلد فيها ، وحبّس جملة من ماله فى سبيل الخير . ودفن فى قبلة مسجد إقرائه .

السادس والأخير من شيوخ أبى البقاء هو **أبو القاسم بن الجد** ، وجاء به ابن الخطيب على هذه الصورة مختصراً ، وبيت بنى الجد أصحاب نباهة وذكر فى إشبيلية ، منهم الكتاب والشعراء والفقهاء ، ومن تولى الوزارة والخطط والقضاء ، ولكنى لم أجد لمن يعنيه ابن الخطيب ترجمة فيما بين يدى من المصادر ، على حين تتوارد أسماء أسلافه كثيراً فى المصادر الأندلسية المتعددة ، كالمغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ، والمعجب لعبد الواحد المراكشى ، ومؤلفات ابن الخطيب نفسه ، ونفح الطيب للمقرى وغيرها . وأشك فى أن أبا القاسم هذا ، الذى كان أستاذاً لأبى البقاء ، دون ترجمة ، ولعلها فيما لم يطبع من كتب ابن الخطيب وغيره ، أو فيما عبثت به يد الزمان من تراث الأندلس فلم تصلنا .

●

من تاريخ هؤلاء الشيوخ ندرك أنهم كانوا يدرسون كل العلوم التى يقبل عليها طلاب عصرهم بعامة ، وعليها عماد الثقافة ، وفيها حاجة الإدارة ، وهى علوم الشريعة من فقه وتفسير وحديث ، وعلوم اللغة من نحو وصرف وأدب ، وأنهم جميعاً يقرضون الشعر ، وبعضهم تميز فيه على نحو ما ، وأرجح أن أبا البقاء أخذ بحظه من هذه العلوم كلها ، ولكنه تجلى فى مضمار الأدب بعامة ، وفى الشعر منه على نحو خاص .

● **مؤلفاته :**

لم يكن أبو البقاء شاعراً فحسب ، وإن اشتهر بهذه الصفة ، وإنما أسهم فى جوانب أخرى من ثقافة عصره . فألف جزءاً على حديث جبريل ، مجهول

المكان فى يومنا هذا، وصنف فى الفرائض وأعمالها مختصراً نافعاً ، وله كتاب كبير سماه « روضة الأنس ، ونزهة النفس » ، كتبه برسم السلطان محمد بن يوسف بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة ، ولا أعلم أن الكتاب موجود ، ولكن لسان الدين بن الخطيب نقل فقرة منه فى كتابه الإحاطة ، وكانت رداً على رسالة مداعبة بعث بها إليه مواطنه أبو بكر البرذعى يصف فيها جارية رآها بسوق الرقيق وصفاً حسياً يتناول ما فتنه من جمالها ، وكيف أنها استولت على لبه ، وأخذت بمجامع قلبه ، ثم « جاء فتى صادق فى حبه ، لا يبالى بفساد ماله فى صلاح قلبه ، فعد المال عدماً ولم يجد من التسليم بداً» .

وذكر أبو البقاء فى مقدمة هذه القصة أنها مما يتعلق بالباب الذى وردت فيه ، ولم يعقب ابن الخطيب على النص بشىء ، ولا نعرف أكيداً هل كان هذا الباب من الكتاب يدور حول الرقيق بعامة ، أم عن الجمال الإنسانى وما يتعلق به من غزل وحب واشتهاء ،وأرجح فى ضوء جملة وردت بآخر النص أنه كان عن « الفكاهة » ، فهو يسلم على صاحبه « ما كانت الفكاهة من شأن الوفا ، والمداعبة من شيم الظرفا » . والرسالة مسجوعة على نهج النثر فى ذلك العصر ، ومتخفّفة تُعجب وتُسلى ، ولم يتجاوز رد أبى البقاء عليها القضية نفسها موضوعاً ، ولا السجع أسلوباً ، واستخدم مواهبه فى رسم صورة أخرى للجارية ، يقابل بها تلك ، تزخر بألوان البديع ، وزاد عليها نصيحة لصاحبه بأنه « لا ينبغى لمن قلبه رقيق ، أن يدخل سوق الرقيق ، إلا أن يكون قد جمع بين المال والجمال ، يتنافس فى العالى ، ويسترخص بالثمن الغالى » .

الكتاب إذن ، فيما أرجح ، من الكتب التى تستهدف الإمتاع والتسلية ، بالحكايات المتخيرة من التراث القديم ، أو الملتقطة من الحياة المستحدثة ، وهى أصدق فى تصويرها للمجتمع ذوقاً واهتمامات من كتب التاريخ نفسها

وقلّ ما تعنى بغير ما يدور فى فلك الحاكمين .

أما كتابه الذى وصلنا فعلا فهو « **الوافى فى نظم القوافى** » ونجد فى بعض بعض المخطوطات لفظ « الكافى » بدل « الوافى »، و « علم » بدل « نظم » ، ووصلنا فى عدة مخطوطات أعرف منها أكيدا :

● مخطوطة ضمن مجموع ، فى الخزانة العامة بتطوان ، تحمل رقم ٤٩١ ، وتقع فى ٨٣ ورقة، من الحجم المتوسط ، ومسطرتها ٢٦ سطراً ، وخطها مغربى واضح ، صحيح فى الجملة ، ولم يسم ناسخها نفسه ؛ ولا ذكر تاريخ النسخ فى آخره .

● وثانية محفوظة فى الخزانة العامة بالرباط ، عاصمة المغرب ، تحت رقم ١٧٣٠ ك ، وهى قديمة ، وتقع فى ١٨٧ صفحة كبيرة ، وكُتبت فى خط مغربى جميل .

● وثالثة توجد فى دار الكتب المصرية ، فى المكتبة التيمورية ، تحت رقم ٦٠٣ أدب ، وجاءت فى ١٨٨ صفحة ، وكُتبت بخط أندلسى ، ويرجع تاريخها إلى عام ٧٣٨هـ ، أى بعد وفاة المؤلف بأربعة وخمسين عاماً لا غير ، وأراها أقدم النسخ الثلاث .

● وثمة مخطوطة رابعة توجد فى مجمع التاريخ الملكى الإسبانى ، تحت رقم ٤٨ ، وآلت ملكيتها إليه من مجموعة المستشرق الإسبانى بسكوال جيانجوس ، ولم أتوصل إلى رؤيتها ، لأن المجمع درج من سنوات على أن يحجب مخطوطاته عن الدارسين العرب ، ومن ثم فلا أستطيع أن أقدم وصفا لها .

وأشار المؤلف صراحة فى مقدمة الكتاب إلى أن اسمه « **الوافى فى نظم القوافى** »، وقسمه على أربعة أجزاء .

كرس الجزء الأول منها على أربعة أبواب : تحدث فى أولها عن فضل الشعر، ومن تكلم به ، وأثاب عليه ، وفى الثانى عن الشعراء وطبقاتهم ، وجعلهم أصنافاً

ثلاثة : جاهليين ومخضرمين وإسلاميين . وقسم هؤلاء إلى ثلاثة : مُحدث ، ومولد ، وبعد ذلك كل عصر ينسب إليه أهله . وفى الثالث عن عمل الشعر وآدابه ، وفيه أخبار طريفة مما يدخل فى باب البديهة والإجازة والمماطلة . وفى الرابع عن أغراض الشعر وأبوابه ، وحصرها فى ثمانية أنواع : النسيب ، والمدح ، والتهنئة ، والرثاء ، والاعتذار ، والعتاب ، والذم . وأورد فى كل قسم منها ما يناسبه من تعريف أو تقسيم ، ونماذج من قصائد الشعراء المتقدمين عنه ، والمعاصرين له ، ومن شعره هو على الخصوص .

وأوقف الجزء الثانى على محاسن الشعر وبديعه ، وجاء فى أربعين بابا هى : الابتداء ، والانتهاء ، والاستطراد ، والمطابقة ، والمقابلة ، والمناسبة ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتخييل ، والتفريع ، والتوجيه ، والتمثيل ، والتمثيل الذى قبله نوع من التشبيه ، والتجنيس ، والمضارعة ، والترديد ، والتصوير . والاتباع والتبديل ، والتضمين ، والاطراد ، والتفسير ، والمبالغة ، والتتميم ، والتسهيم ، والتحرز ، والالتفات ، والتحريف ، والاستثناء ، والاستدراك ، والقلب ، والتصحيف ، والترصيع ، والتسجيع ، والتسميط ، ولزوم مالا يلزم ، والتفصيل ، والتختيم ، واللغز .

ودرس فى الجزء الثالث عيوب الشعر ، ورد ها إلى ثلاثة أنواع : الإخلال ، والسرقة ، والضرورة . ولم يخص الإخلال بفصل مستقل ، وإنما جعله تسعة أضرب تكلم عليها واحدا فواحدا ، وعقد للسرقة ثلاث فصول : فى ضروبها وألقابها ، وفى مراتب الأخذ ، وفيما يشبه السرقة وليس منها ، وتحدث فى آخر هذا الجزء عما يجوز فى الشعر لغير ضرورة .

أما الجزء الرابع والأخير ، فأوقفه على حد الشعر والعروض والقافية ، وفيه فصل فى ألقاب البيت تختلف باختلاف أحواله ، وفصل فى أنواع الشعر وألقابها ويعنى بها عروضه . ورأى أنها أربعة وعشرون بحراً : خمسة عشر قديمة تكلمت

بها العرب ، وتسعة محدثة ولّدها المحدثون . وقد تكلم على البحور القديمة المعروفة ، أعاريضها وضروبها ، ومايعرض لها من زحافات وعلل ، وختم ذلك كله بذكر الأجزاء التي يتركب منها كل بحر منظومة فى شطر ، وشطر آخر من عمله ، يبين فيه اسم البحر نفسه ، كقوله فى بحر الطويل :

ومثلُ طويلِ الشعرِ ماانا قائلُ فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلُ

وأتى بعد ذلك على الأوزان المحدثة ، وهى : الوسيط ، والوسيم ، والمعتمد ، والمتئد ، والمسرد ، والمطرد ، والخبب ، والفريد ، والعميد. وذكر أجزاء تفاعيلها وأمثلتها . ثم فصل القول فى القافية ، وختمه بآخر أتى فيه على عيوب الأعاريض والقوافى .

ولكن أهمية الكتاب لاتقف عند هذا الحد ، فهو ينثر خلاله كثيراً من أشعار معاصريه ، وبعضها يكاد يكون المصدر الوحيد عنها(١) ، وحكايات عنهم ، وأخبار ومساجلات تتصل بالموضوع الذى يكون فيه .

ويشير الذين ترجموا له إلى أن له « مقامات » بديعة ، فى أغراض شتى ، ولكنها لم تصلنا فيما أعرف ، وقد يكون المراد فيها ماكتبه مسجوعاً فى كتابه « روضة الأنس » ، ذلك أن الأندلسيين وغيرهم يطلقون أحياناً اسم «مقامة » على كل نص مسجوع .

● **ديوانه :**

يقول **ابن الزبير** عن شاعرية **أبى البقاء الرندى** ، وكان أستاذاً له على نحو ما : « شاعر مجيد فى المدح والغزل » . ويذكر عنه **ابن عبدالملك** فى كتابه « الذيل والتكملة » ، وأجازه أبو البقاء فى رواية ما ألفه نظما ونثراً : « كان خاتمة الأدباء

---

(١) أنظر مثلا : غرسية غومث ، مع شعراء الاندلس والمتنبى ، ص ٨٠ ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٧٧ .

بالأندلس ، بارع التصرف فى منظوم الكلام ومنثوره » . ويقول أيضاً : إن نظم أبى البقاء ونثره مدون . ولكن شيئاً من ذلك لم يصلنا ، فيما أعلم . ونعرف منه أخيراً ، أن أبا البقاء أودع جملة وافرة من نظمه فى كتابه « الوافى » ، وأورد منها فى كتابه « الذيل » قصيدة من أربعة عشر بيتاً . أوردها أبو البقاء هناك فى باب التشبيه ، ومطلعها : .

علّلانى بذكر تلك الليالى وعهودٍ عهدتها كاللآلى

ونقل له قصيدة أخرى ، من باب التشبيه أيضاً ، فى ثلاثة عشر بيتاً ، ومطلعها :

وليلٍ صبابةٍ كالدهرِ طولاً تنكّر لى وعرّفه التمام

وبعد القصيدة أصاب مخطوطة « الذيل » خرم سقطت معه بقية ترجمة أبى البقاء ، ويعسر علينا أن نتنبأ بما فقدنا مع ضياعها . ولكن الأبيات على أية حال من قصيدة طويلة فى مدح السلطان محمد بن الأحمر ، وجاء بها ابن الخطيب كاملة ، وهى فى خمسة وأربعين بيتاً ، ومطلعها :

سرى والحبُّ أمرٌ لا يُرام وقد أغرى به الشوق والغرام

وأورد له ابن الخطيب جملة من شعره ، تبلغ الستة والعشرين ، ما بين قصائد ومقطوعات ، أقلها فى بيتين ، وأطولها فى ستة وأربعين بيتاً ، وقال عنه : إنه كثير ، « سهل المأخذ ، عذب اللفظ ، رائق المعنى ، غير مؤثر للجزالة » .

وأورد له المقرى ، فى كتابيه **نفح الطيب** وأزهار الرياض ، قصيدته النونية كاملة ، واختص بذلك ، نقلا عن الذخيرة السنية ، وسندرسها مستقلة وتفصيلاً فيما بعد ، ثم قصيدة طويلة فى خمسة وثلاثين بيتاً ، جاء بها فى نفح الطيب فحسب ، ومطلعها :

سلّمْ على الحى بذات العرارْ وحىّ من أجل الحبيب الديارْ

واختار ابن الخطيب أبياتاً عشرة منها أعجبته ، من مقدمتها الغزلية ، وقدم لهـا بأنها « مغربـة فى الأحسـان » . أما الأبيـات الأخرى التى أوردها لـه المقرى ، وهى بيتـان فى وصـف البحر ، وبيتـان فى وصف سكين الكتابة ، وبيتان فى وصف المقص ، وستة أبيات فى الغزل ، وثلاثة فى وصف غلام ، وأراه نقلها كلها من الإحاطة ، لأنه حرر كتابه النفح فى القاهرة ، وكان ابن الخطيب قد أوقف بنفسه نسخة من كتابه فى حياته على طلاب العلم فى مصر ، واطلع عليها المقرى وأفاد منها .

● مدائحه :

ثلاث قصائد مما وصلنا فى مدح السلطان محمد بن الأحمر ، وهى من النظم الجميل ، على نحو ما نجد عند معاصره ابن زمرك ، فكأنهما يغترفان من نبع واحد ، الأولى فى ٤٦ بيتاً ، ومطلعها :

سـرى والحبُّ أمـر لا يرامُ وقد أغرى به الشوق والغرامُ

ويبدؤها بمقدمة غزلية ، يناجى فيها محباً فارق ، ويشكو ليلا طال ، ويملؤها بكل ما فى طاقته من صور جلها معاد مكرر ، وإن جاءت فى إيقاع جميل محبب ويخلص منها بعد أربعة وعشرين بيتاً إلى مدح الأمير ، بما اعتاده شعراء هذه الفترة ، وكل فترة فى الحقيقة ، فالشمس كوجهه سطوعاً ، وهو يشبه البدر ملاحة وتماماً ، شجاع مقدام ، عريق من بنى نصر الكرام ، الذين ينتسبون فى الأنصار الذين نصروا الرسول وآووه ، وهم الذين قادوا الجيوش ، ومنحوا الجزيرة الأمن ، وبالأمير محمد عز الدين ، وقويت شوكة الإسلام ، وقد تلتقى فى القصيدة بصورة طريفة ، حين يمدح الأمير بالجود والسخاء ، إذا قلنا إن فى يده غماماً ، بخسنا حق اليد ، وضللنا الغمام :

إذا ماقيل فى يده غمـامٌ فقد بُخستْ وقد خُدِعَ الغمامُ

وأحياناً يمضي بالصورة إلى لون من المبالغة المنفرة ، تذهب بالمعنى ، وتترك في النفس عكس مايريد من تصوير :

إذا ماضاقتْ الدنيا بِحُـرٍ كفاهُ لثمُ كَفِّكَ والسلام

والقصيدة الثانية في المديح أتى بها المقرى كاملة في **نفح الطيب** ، ولم يشر كما هو حاله كثيراً إلى المصدر الذي نقلها عنه ، وجاءت في خمسة وثلاثين بيتاً ، بدأها بمقدمة طللية شغلت خمسة عشر بيتاً ، سلم فيها على الحي ، وحيا الديار، جاء بذلك في بيت واحد تجاوز بعده الإيقاع الجاهلي ليدافع عن العشاق ، ويجنبه من لامهم ، ويدعوا إلى حياة أبيقورية ، لأن العيش لمن رامه ، وليالي الأنس قصار ، وبين الكأس والوصل يجب أن تمضي الحياة ، وتغزل بظبي غرير تعذب في حبه ، وفارق النوم في فكره ، ورغم أن الأبيات محافظة ، جاءت تقليداً لنهج ملتزم ، إلا أنها معنى وصورة تعكس في هذا النطاق روحاً أندلسياً خالصاً .

واختار ابن الخطيب الأبيات التي تلي هذه المقدمة ، وعددها عشرة ، أعجب بها ، ورآها « مغربة في الإحسان » ، رغم أنها تنضح افتعالا وصناعة ، فهي تصف معركة ضارية بين الليل والنهار ، حين تفجر الصبح ، وانهزم الليل ، وأسرعت الشهب هاربة ، وانزوى السها خيفة ، وثار النجم ، وشابت نواصي الدجى ، وطارح النسر أخاه ، وغير السفر من القمر ، فصار في آخر الشهر كأن عنقوداً تثنى به ، أوعرجونا تدلى ، وكأن الثريا تسبكه دينارا ، وكفها يفتل منه سوارا ، وتحكم الفجر في الظلمة فجار عليها ، وتلقى الصبح المشتاق إليه ، فسعد به ، كما يسعد المرء بإقبال الدنيا ، بعد أن ذاق ذل الفقر :

وليلة نبّهتُ أجفانهـــا والفجـرُ قد فجّر نهرَ النهارْ
والليلُ كالمهزومِ يوم الوغى والشهبُ مثل الشهبِ عند الفرار
كأنما استخفى السهـا خيفةً وطولبَ النجمُ بثارٍ فثـار

لذاكَ ماشابتْ نواصي الدجى وطارحَ النسرُ أخاه فطـار
وفي الثريا قمـرٌ سافـرٌ عن غرّة غيّر منها السفار
كأن عنقـودا تثنّى بـه إذ صار كالعرجـون عند السرار
كأنهـا تسـبكُ ديناره وكفُّها يفتل منه السـوار
كأنمـا الصبح لمشـتاقه عزٌّ غنيٍ من بعد ذُلٍّ افتقار
كأنما الشمسُ وقد أشرقتْ وجه أبي عبد الله استنار

واستغنى ابن الخطيب عن تكملة أبيات المدح التالية للبيت الأخير ، لأن هذه تحفل على أية حال بعدد من الصور البلاغية ، وهي مفتعلة ، ومنحوتة ، ولكنها صور في نهاية المطاف ، أما التي أعرض عنها فقدخلت حتى من الصناعة ، مجرد نظم لافن فيه ولا روح ، من مثل قوله :

محمـدٌ محمـدٌ كاسمـه شخص له في كلٍّ معنى يُشارْ
اليمْن من يمناه حكم جرى واليسرُ من شيمة تلك اليسـار

ويشغل هذا السخف من القصيدة عشرة أبيات كاملة ، تدور حول مدح الأمير بأنه من لخم وبه تزهو ، وفرع من قيس وإليه تنتمي ، وأنه أجود من البحر ، يدور معه السعد حيث دار ، ويختمها بهذا البيت :

الحافظ الله وأسمـاؤه لذاك الجارِ وذاك الجـوار

واختيار ابن الخطيب لما سجل منها ، يومئ إلى أنه في كتابه « الإحاطة » كان يتذوق مايدون من شعر ، وليس حاطب ليل يجرى قلمه بأى قصيد تجرى عليه عيناه .

وقصيدة المدح الثالثة ، والأخيرة ، جاءت في سبعة وعشرين بيتاً ، بدأها بمقدمة غزلية رائقة ، محكمة النظم ، فلا حشو في ألفاظها ولا زيادة ، جميلة الإيقاع ، فلا نشوز في موسيقاها ولا اضطراب ، تميل إليها النفس ، وتعلق

سريعاً بالذاكرة ، وأعجب بها ابن الخطيب كثيراً ، وقال عنها إنها ذات نزعة غريبة ، وسبق بها غيره .

ياطلعةَ الشمسِ إلاّ أنه قمرٌ أما هواك فلا يبقى ولا يذرُ
كيف التخلُّص من عينيك لى ومتى وفيهما القاتلا ن : الغنج والحور
وكيف يُسلى فؤاد عن صبابته واو نهى الناهيان : الشيب والكبَرُ
أنتَ المنى والمنايا فيك قد جُمعتْ وعندك الخالتان : النفع والضرر
ولى من الشوق ما لا دواء لـــه ومنك لى الشافيان : القرب والنظر
وفى وصالك ما أبقى به رمقـــى لو ساعد المسعدان : الذكر والفدر
وكان طيفُ خيالٍ منك يقنعنى لو يذهب المانعان : الدمع والسهر
يانابيا لم يكن إلاّ ليملكنـــى من بعده المهلكان : الغم والغيَرُ
ماغبتَ إلا وغاب الجنس أجمعه واستوحشَ المؤنسان : السمع والبصر
بما تُكنّ ضلوعىَ فى هواك بمن يعنو له الساجدان : البجم والشجر
أدركْ بقية نفسٍ لستَ مدركها إذا مضى الهاديان : العين والأثر

وقد انتقـل من المقدمة إلى مقصده فى سهولة دون افتعـال ، وألحق بها مدح السلطان ، وهـو غايته ، دون جفـاء ، يكنيه أبا عبد الله ، ولا تفـترق المعانى هنا عما فى قصيدته الأولى ، وإن اتخذت صوراً مختلفة ، وسار فى بنائها على نهج مغاير ، كالذى نلحظه فيما أوردنا من مقدمتها ، فالأمير كريم يهب الخيل آلافاً ، شجاع فارس الجمع عند اللقاء ، أسد عند الخطر ، وربما كان المعنى الجديد الذى وقع عليه ، وقل ما يعرض له الشعراء فى أمداحهم ، أن رعيته باتت فى أمان ، فما يخشى الناس فى حياتهم راحلين أو مقيمين شيئاً :

تأمن الناسُ فى أيامه ومشـوا كما مشى الصاحبان : الشاة والنمرُ
وزال ماكان من خوفٍ ومن حذرٍ فما يرى الدائلان : الخوف والحذرُ

لا جديد من المعانى فى مدائح أبى البقاء ، وإن جاءت بعض أبياتها فى

ثوب قشيب ، وفى صورة تختلف عما عند غيره من الشعراء ، إن الشاعر والشعر هنا ، وربما فى عصور كثيرة ، لا يتجاوز غالباً وصف الممدوح بصفات عامة ، مبالغ فيها ، يمكن أن يُلبسها الشاعر لمن يريد ، دون عناء كبير . وليس وراءها دافع قوى من عاطفة أو حب أو شكر ، ومن ثم جاءت باردة روحاً ووقعاً ، لا تثير فى النفس شيئاً ، لأنها صدرت عن نفس خاوية غير مستثارة حقاً .

● تغزله :

نلتقى بشعر الغزل عند أبى البقاء على ضربين ، تقليداً يجئ فى مقدمة قصائد المديح ، وعرضنا له من قبل ، وقلة من الشعراء فحسب تتخفى وراء هذه المطالع ، لأسباب اجتماعية أو دينية ، فتتغزل حقاً ، وتعبر عن عاطفة مشبوبة ، ولكنها توهم غيرها بأنها تحتذى نهجاً متبعاً ، أما الكثرة الغالبة فيجئ غزلها فى هذا المقام صناعة خالصة ، وأخال مقدمات أبى البقاء من هذا اللون .

والضرب الثانى مقطعات غزلية خالصة ، بعضها لا يمكن الجزم بصفته هذه ، فقد يكون مطلعاً لقصائد اختارها الجامع أو المدون لأنها أعجبته ، وأعرض عن بقية القصيدة لأنها لم ترضه أفكارا أو شكلا ، ويبدو ذلك واضحاً حين يسبقها بقوله : « قال فى . . . » ، والبعض الآخر يشير صراحة إلى أنها مقطوعة ، وفى هذه الحالة يكون الشاعر قد استهدف بها التغزل بدءا ، تعبيراً عن مشاعر مكنونة ، أو إظهاراً لقدرته على النظم فى هذا المجال أحياناً .

وتدور معانيه فى الغزل حول محاور عديدة ، منها : أن يهجره الحبيب فيطول ليله كأنه سرمد ، أو يقبل عليه فيمضى الليل كأنه لحظة . وجاء المعنى الأول فى أبيات ستة صور فيها حاله ، وأشواقه ملتهبة ، وأدمعه متدفقة ، وصبره نافد ، وتحس معها أنها غير كاملة ، وربما كانت مطلعاً لقصيدة ذهب آخرها ، لأنك مع البيت الأخير منها تتوقع أن يقول شيئاً لم يجئ ، وأن يمضى بك إلى فكرة مقنعة ، ولكنه يقف بك حيث انتهى جلده :

أطال ليلى الكمد فالدهر عندى سرمد
وما أظن أنه لليلة الهجر غد
بانائما عن لوعتى عوفيت مما أجد
ارقد هنيا إننى لا أستطيع أرقد
لواعج ما تنطفى وأدمع تضطرد
وكبدى كبد الهوى وأين منى الكبد
ولا تسل عنى جلدى أم والله مالى جلد

أو يصف فى بيتين حال متيم تثير الشفقة ، كثر عليه العشاق فضاع بينهم : وكأنما أراد أن يشارك شعراء عصره حتى فى الشذوذ فوصف لنا غلاماً فى أبيات ثلاثة ، وهى المقطوعة الوحيدة التى وصلتنا فى شعره من هذا اللون ، وتعكس خصائص الشعر الأندلسى فى مرحلة توهجه ، حين جعل من جمال الطبيعة والجمال الإنسانى شيئاً واحداً ، ويتراسلان الخصائص والصفات . ولكنه اكتفى بأن يصف ، وأن يقف عند مارأى ، وأن يقول إن جمال الغلام يعجب عشاقه . أما هو فلم يتجاوز الحديث عنهم وعنه ، وهو شىء يُحمد له على أيه حال :

وافى وقد زانه جمال فيه لعشاقه اعتذار
ثلاثة مالها مثال الوجه والخد والعذار
فمن رأى بياضها الورد والآس والبهار

وأخيراً نجد له أبياتاً ثلاثة فى وصف امرأة خارجة من الحمام ، عدها ابن الخطيب من النسيب وأراه محقاً ، وهى صورة نادرة قل أن نجد لها شبيهاً فى الشعر الأندلسى ، ولو أن معاصره ابن خاتمة عرض لمثلها فى صورة أخرى . فقد تشفع عند القاضى فى أبيات عذبة رقيقة ، فى شأن جارية عزرها القاضى لأنها أخذت حمامها من غير إزار(١) ، وأبيات أبى البقاء لا تقل عنها عذوبة وعفوية :

---

(١) انظر الهامش رقم ٢٦ ص ١٢٩ من هذا الكتاب .

برزت من الحمّام تمسح وجهَها عن مثلِ ماءِ الوردِ بالعُنّابِ
والماءُ يقطرُ من ذوائبِ شعرِها كالطلِّ يسقط من جناحِ غُرابِ
فكأنها الشمسُ المنيرةُ فى الضحى طلعتْ علينا من خلال سحاب

وكان أبوعثمان ، سعد بن ليون التجيبى ، شيخ لسان الدين بن الخطيب ، ينشد الأبيات التالية فى مدينة المرية . من شعر أبى البقاء ، وعنه أوردها المقرى فى « نفح الطيب » . ولم يوردها لسان الدين بن الخطيب فى الإحاطة ، وهى من الغزل الرقيق حقاً . بسيطة وسهلة ، وغنية عن أى شرح أو تمهيد :

أيّهـــا العاذلُ باللهِ اتئدْ لك قلب فى ضلوعى أو كبدْ
هى أجفانى فذرها تهمى هى أحشائى فدعها تتقـــدْ
لا تظنَّ الحبَّ شيئاً هيِّناً ليس فى الحب قياس يطرد
أنتَ خلو وأنا صبٌّ شجٍ فإذا حدثتَ عنى قل وزدْ
فاتركِ اليومَ ملامى إنّه يُترَكُ الشيءَ إذا لم يفد
أنا أســـلو عن حبيبى ساعةً ياعذولى . قلْ هـــو الله أحد

كان حظ أبى البقاء من الغزل فى شعره قليلاً للغاية . على الأقل فيما وصلنا منه ، وربما مرد ذلك أن غزلياته ضاعت فيما ضاع له من شعر ، أولأن الظروف الاجتماعية حوله لم تتح له أن يعبر عن مكنون عاطفته . فلا أخال فنانا لا تستهويه المرأة جميلة أو أنثى ، فى عصر كانت هى أجمل مافيه . وملهمة أى إبداع ، ومن يدرى ، ربما يكمن السبب فى أنه واجه الحياة فقيراً . وأمضاها مكدودا ، فشغلته ضرورات العيش عن دواعى الهوى ، وأنضبت فى أعماقه ينابيع الغزل .

● شعر الوصف :

ويجيء عنده إدراكاً خارجياً لما كان يرى ، وربما صنعه مهارة وجريا على سنن الشعراء فى عصره ، حتى لايكون دونهم ، يصف النهر فى أربعة أبيات ، لا يخرج فيها عن المعتاد من الأوصاف الأندلسية ، فالزهور تحف به . ويسيل على مثل الجمان ، كالسيف سل من غمده ، وكسر النسيم صفحته ، وصافحت الأدواح سطحه ، ثم يصف البحر فى بيتين :

البحرُ أعظمُ مما أنت تحسبُهُ ... من لم ير البحرَ يوما مارأى العجبا
طامٍ له حَبَبٌ طافٍ على زَرَقٍ ... مثل السماء إذا مامُلِّئتْ شُهُبا

ويصف الجيش تحرك لمعركة ، الجنود المدرعين ، والقضب تعلوها الرايات ، فرحين بلقاء العدو ، ليوث لايخافون ، سيوفهم ماضية ، قاتلوا حتى انتصروا ، وتركوا العدو وراءهم ، وقد ارتاع ناقوسه ، وبكى صليبه ، وأصبحوا خبرا من الأخبار :

وارتاعَ ناقوسٌ بخلع لسانه ... وبكى الصليبُ لذلّة الكفّارِ
ثم انثنوا عنه وعن عُبّاده ... وقد أصبحوا خبرا من الأخبار

ويصف السيف والقلم ، ويجرى مفاخرة بينهما ، وسكين الدواة ، والورد ، والخيرى ، وكان شائعاً ومحبوباً وتغنى بوصفه كثيراً شعراء مملكة غرناطة ، والريحان والرمان والجزر . وكلها تجئ فى مقطوعات قد تكون بيتاً أوبيتين أو أكثر ، ولكنها لا تجاوز الستة الأبيات ، ويبدو فى بعضها على الأقل أنها مأخوذة من قصائد أطول منها ، أعجب بها ابن الخطيب فانتزعها ، وترك ماعداها . وربما كان وصف السيف أجملها :

وأبيضٌ صيغ من ماءٍ ومن لهبٍ ... على اعتدال فلم يَخْمدُ و لم يَسلِ
ماضى الغرار يهاب العمرَ صَولَتَه ... كأنما هــو مطبــوعٌ من الأجــل

أبهى من الوصل بعد الهجر منظرُه ... حُسنًا وأقطعُ من دين على مال(؟)
وأسمر ظن ماكل سابغة ... فخـاض كالأيم يستشفى من النهل(؟)
هام الكماةُ به حباً ولا عجبٌ ... من لوعة بمليح القدّ مُعتـدل
إذا الطعينُ تلقاه وأرعنـه ... حسبته عاشقا يبكى على طلل

وأورد ابن الخطيب أيضاً أبياتاً جميلة لأبى البقاء ، فى وصف ساقية وحديقة ، انتزعها من قصيدة مطولة فيما يقول ، ولا يوحى جوها بأنها كانت مقدمة لقصيدة مدح ، ووصفه بأنه « تفنن فيها » ، ويبدو أن بعض كلماتها أصابه التحريف فى المخطوطة أوالنسخة المطبوعة(١) فلا نكاد نتبين المراد منها إلا بجهد ومشقة ، وبخاصة أنها تزدحم بالصور البلاغية البعيدة المطارح ، ومثلها يعسر تبين المراد منه مالم يلمح الراوى بدءا إلى مايتحدث عنه الشاعر أويصفه . ومع ذلك يمكن أن نفهم من الأبيات أنه يتحدث عن ساقية ، صوتها أجل من العود ، تسق وهى تجرى ، وتجرى وهى تسقّ ، تجر النهر كوشاح أبيض ، يرف على حافته الزهر ، وتهز الأدواح كتائب خضراء ألويتها بيضاء ترتفع فوق أغصان سمراء .

لقد رماها قزحٌ بألوانه ، فجردت سواقيها السيوف على ماء النهر ، وهب النسيم فجفف ماعلى الزهر من طل ، وبدأ الروض وكأنه صحيفة مكتوبة ، أشجاره قائمة كالألفات ، وسطحها فى صفرة التبر ، وبدت زهرة الأقحوان كخاتم من فضة تزينه فصوص من ذهب ، وتناثر الطل حول النرجس الغض فكان كالعيون يترقرق الدمع فى أجفانها ، واختار « الخيرى » أن يعبق بشذاه ليلاً كالعشاق ، لأن الليل أكتم للسر ، على حد تعبير ولادة بنت المستكفى :

وغانيةٍ يُغنى عن العود صوتُها ... وجارية تسقّ ، وساقيةٌ تجرى
بحيث يجر النهرُ ذيلَ مجرةٍ ... يرف على حافاتها الزهر كالزهر

---

(١) الاحاطة ، جـ ٣ ص ٣٧٠ ، بتحقيق محمد عبد الله عنان .

وقد هزت الأدواحُ خُضر كتائبٍ بألويةٍ بيضٍ على أسلٍ سمر (١)
رمى قزحٌ نبلا إليها فجـــردت سيوفا ، سواقيها على دارع النهر
وهبَّت صبا نجدٍ فجرت غلائلاً تخفف دمعَ الطل عن وجنة الزهر
كأن بصفح الروضِ وَشْيَ صحيفةٍ وكالألفاتِ القضبُ، والطرسُ كالتبر
كأن به النرجسَ الغضَّ أعينٌ ترقرقَ فى أجفانها أدمعُ القطر
كأن شذا الخيرى زورةُ عاشقٍ يرى أن جُنحَ الليل أكتمُ للسر

الأبيات بديعة التصوير ، تكثر فيها الصور البلاغية ، وبعضها جديد من صنع أبى البقاء ، كتشبيه شذا « الخيرى » يعبق ليلا بزيارة العشاق لاتم إلا فى الظلام ، أو تشبيه زهر الأقحوان بخاتم من فضة . ولكن ؟ . . أين هو من هذا كله ؟ بماذا أحس ؟ ماصدى هذا الجمال فى نفسه ؟ لايشى بشىء من حقيقة شاعره ، والحق أنه ليس فرداً فى هذا الطريق ، فجل شعراء العربية يقفون على الحياد بإزاء جمال الطبيعة حين يعرضون لها ، غير أنه تجافى عادة أندلسية شائعة فرفاقه فى وطنه لايتحدثون عن الرياض إلا ويعرضون للشراب فى ظل أشجار ، وبين طيب هوائها ، ولا يذكر الشراب إلا ومعه السقاة والصبايا الفاتنات ، وقد يجمعون إلى هذا كله الموسيقا والغناء . أم تراه كان يقصد بدءا أن يصف الساقية فحسب ، مهارة وإظهاراً لمقدرته ؟ لايمكن الجزم بشىء من هذا ، فى غيبة بقية القصيدة ، وقدم لها ابن الخطيب بأنها من المطولات .

● همومه إنساناً :

وثمة أبيات تتصل بهموم الشاعر الإنسانية ، وصلاته الاجتماعية ، تجىء أيضاً فى مقطوعات قصيرة ، لا يمكن القطع بأنها كذلك فى الأصل ، لأننا نعتمد فيها على ابن الخطيب ، وهو يقحم ذوقه فيما يختار ، ولعله التقطها من قصائد

---

(١) فى الاصل :
« وقد هزت الارواح خضر كتائب » ، ولااراه مفهوما .

مطولة لم تعجبه ، وعرفنا فيما سبق أنه وصم أبا البقاء شاعراً بأنه «غير مؤثر للجزالة» وكانت محببة إلى أديب غرناطة الكبير ، فأبو البقاء يشكو ، فى بيتين ، أخوة السوء لانفع فيهم ، ويورد فى بيتين آخرين أنه عجم الزمان ، وعرف أهله ، فإذا هم يقلون عند الفزع ويكثرون عند الطمع ، كلامهم كثير ، وإقبالهم على الدراهم شديد :

ولقد عرفتُ الدهرَ حين خبرتُه ... وبلوتُ بالحاجاتِ أهلَ زمانى

فإذا الأخوة باللسان كثيرةٌ ... وإذا الدراهم مَيْلق الإنسان

أو يدعو ، فى بيتين ، إلى الصبر ، ويبشر به ، لأن الدهر يقبل ويدبر ولا يبقى على حال . ويحدثنا أخيراً عن الموت ، وقلة من الشعراء تتحدث عنه كظاهرة ، وانفعالا به ، لأنه تجربة لاتحدث إلا مرة واحدة فى العمر ، وحين تحدث يكون صاحبها عدماً ، لا يحس ولا يشعر ، بالنسبة لنا على الأقل ، وأن تعيش التجربة تخيلاً ، أو ترتد إليها تصوراً ، يتطلب الأمر حين تكون شاباً حالة نفسية معتمة ، أو واقعاً اقتصادياً ضاغطا ، تصبح الحياة معه عبئاً مضنياً تود التخلص منه ، أو أن تتقدم بك السن ، وتشرف على النهاية ، فأنت على بعد خطوات من الموت لا محالة ، وذلك ماذاه مع أبى البقاء ، فقد امتدت به الحياة ، وحين دنت ساعته تحدث عن الموت حديث الواعظ ، فما بَعْده عسير ، وطاعات المرء هى التى تحسب له ، ويدعو غيره لأن يعرض عن اللذات ، وأن يتعظوا ، ويتبعوا أوامر الله ، كل من على الدنيا رحل ومضى ، حتى الملوك ، ولم يحمل أى منهم غير كفنه ، ولم يحز من أرضها غير قبره :

الموتُ سر اللهِ فى خلقه ... وحكمةٌ دلتْ على قهرهْ

ماأصعبَ الموت وما بعده ... لو فكّر الإنسانُ فى أمره

أيامُ طاعاتِ الفتى وحدها ... هى التى تحسبُ من عمره

لا تُلهك الــدنيا ولذاتُهــا عن خدمةِ مولاك ولا أمــره
وانظر إلى من ملك الأرض هــل صحّ له منها سوى قبــــره

ثم يرثي نفسه ، يكتب شاهده الذى سيوضع على قبره ، ينظمه شعراً ، ويطلب فيه من صحبه ، ومن يمر عليه ، أن يطلب له الرحمة ، وأن يدعو له بالمغفرة ، فما أشد حاجته إليهما :

خليلى بالودّ الذى بيننا اجعلا إذا متُّ قبرى عرضةً للترحُّمِ
عسى مسلمٌ يدنو فيدعو برحمةٍ فإنّى محتاجٌ لدعــوةِ مُسلمِ

وهى فكرة نجدها عند ابن الزقاق (١) أيضاً ، ولو أن هذا اعترف ، وذكّر صحبه بأنهم أمضوا حياة هنيئة ، وأن دنياهم كانت رائقة العيش ، فيا ضة بالصفاء والمتع .

وما نقل إلينا من شعر أبى البقاء خالٍ من أى نبض عائلى ، صحيح أن قلة من الشعراء تحدثوا عن زوجاتهم ، ولكن الكثيرين منهم تحدثوا عن آبائهم وأمهاتهم ، وبخاصة إذا كانوا فى حالة اجتماعية مرموقة ، وإنما يصمتون عنهم إذا جاءوا من غمار الناس ، فليس فى أنسابهم مايزهون به . أترى صمت عنهم أبو البقاء لأنهم كانوا من هذا القبيل ؟ ربما . ولكن لماذا صمت عن بنيه أيضاً ؟ .

● فنه الشعرى :

من الظلم الواضح ، ومما يجافى قواعد النقد الحقة ، أن نقوّم شاعراً فى ضوء بعض شعره ، وربما كان أقله ، وفى غيبة الكثير الذى أبدعه ، وربما كان أجوده وهو ماينطبق على أبى البقاء تماماً ، ولا يشفع له ، ولا يصلح عذراً لنا ، أن

---

(١) انظر الفصل الخاص بابن الزقاق في : غرسية غومث : مع شعراء الأندلس والمتنبى ، ترجمة الدكتور الطاهر احمد مكى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨ .

ماوصلنا من شعره كان فى جملته اختيار عالم أديب ، وهوابن الخطيب ، لأن الاختيار يعكس ذوق المختار ، في نطاق بيئته ومزاجه وعصره وظروفه ، ولا يعنى بالضرورة أن ما اختار له أفضل ماقرأ أو سمع من إبداعه ، إلى جانب أن ابن الخطيب نفسه لم يكن مجرد مؤرخ كاتب ، أو أديب شاعر ، وإنما كان قبل هذا وزيراً أول ، ورجل دولة مسئول ، ويضع فى اعتباره هذه الجوانب كلها حين يختار أو يكتب ، وما أكثر ماألمح فحسب ، أوصمت تماماً ، أديب غرناطة الكبير . ولكن ذلك لايحول دون أن نبدى ملاحظاتنا على القليل الذى بين أيدينا ، وأن نقول رأينا فى ضوئه ، وهورأى قابل للتغيير إن جد مع الزمن مايجعل مراجعته ضرورة .

أول مايلفت النظر فى شعر أبى البقاء هذه اللغة البسيطة السهلة ، تكاد أن تكون عامية ، مما يجرى على ألسنة الناس عادة ، وهو أمر لا يجئ عنده عن عجز أو تقصير ، لأن بعض مقطوعاته التى آثر فيها جانب الصناعة ، حفلت بالألفاظ المعجمية ، وإن جرت بين أنداده من شعراء عصرى الخلافة والحجابة بوجه خاص ، وإذن فهو يسلك هذا الطريق اقتناعاً منه ، وإيثاراً له ، وليس مسافاً إليه . ويدعم رأيى هذا أننا لانقع فى كل مالدينا من شعره على لفظ واحد غير عربى ، رغم أنه عاش فترة المد والجزر العنيفة بين الإسلام والمسيحية على بطحاء شبه الجزيرة ، وهوتجاذب يتجاوز الحرب إلى الاجتماع والاقتصاد ، وحتى الثقافة ، على السواء ، ومع ذلك ليس ثمة لفظ رومانثى واحد فى أى من قصائد أو مقطوعات أبى البقاء .

يميل أبو البقاء إلى الألفاظ الجارية ، ويؤثرها على غيرها ، وإن أدت هذه المعنى نفسه ، وجاءت فى ذات الإيقاع ، فهو يستخدم كلمة « بخت » ، بدلا من « حظ » ومعناهما واحد ، ووزنهما العروضى واحد ، وذلك فى قوله :

إذا لم يُرزق الإنسانُ بختا فما حسناته إلا ذنـــوب

وقد يجيء شطر البيت كله من هذا الكلام الدارج :

ولا تســـل عن تَجلدى واللـــــه مالـــى جلــــدْ

ولو أن شعراء عصره أوغلوا فى القديم ، وآثروا الألفاظ الصعبة ، على طريقة ابن هانىء أو ابن دراج القسطلى ، لفسرت موقفه بأنه كان رد فعل ضد هذا الإيغال ، ولكن شعراء عصره كانوا ، فى الحق ، على مقربة منه فى لغتهم ، وإن لم يهبطوا بها حيث اختار أبو البقاء أن يكون ، وإذن فهى طبيعة العصر نفسه .

أتُراه كان يكتب لأبناءِ زمنه ، لا يهمه من يأتون بعده ، وليس فى حسبانه من ذهبوا من قبل ، وأن أبناء زمنه شُغلوا وسط عواصف السياسة الهوج عن العربية وإجادتّها والفصحى وغريبها ، وإيثار ماجزل من ألفاظها ؟ . افتراض يقف فى طريقه أن الشعوب فى لحظات المحن تحرص أكثر من أى وقت آخر على مقوماتّها الأساسية من لغة ودين وتقاليد وعادات ، ونجد الحرص على اللغة واضحاً فى انتشار فن المقامات والرسائل المسجوعة ، وكتابتّها فى صناعة فنية محكمة ، لا تتأتى إلا لمن يجيد العربية وتمكن من أسرارها ، وقد شارك أبو البقاء فى هذه اللعبة بكتابه « روضة الأنس ، ونُزهة النفس » ، ويصفه ابن الخطيب بأنه كان كبيراً . وأخيراً فإن موقف المسلمين فى الأندلس فى فترة إبداع أبى البقاء ، لم يكن ساء إلى حد ينسى المسلمين لغتهم ، وفى نونيته نفسها شاهد على ماأقول . ومن هنا أرجح أن أبا البقاء آثر السهولة فناً ، وارتضى لشعره أن يجئ لغة فى مرتبة وسط ، يصبح فيها زاد المتعلم ، وغنوة الأمى .

يكثر أبو البقاء من استخدام التشبيه ، وأحياناً يجيء عنده قلقاً ، يصطدم آخره بأوله ، فالجنود المسلمين يذهبون إلى القتال متهللين ، فرحين بلقاء العدو ، فإذا مضيت مع الصورة إلى نهايتّها ، وجدته يشبه هذه الوجوه بالقمر :

متهللين لـــدى اللقاء كأنهم خُلقتْ وجوههمُ من الأقمار

والقمر يرتبط فى ذهن القارىء العربى ، منذ كان هناك شعر وأدب ، بجمال وجه المرأة ، به تشبه ، وبين جماله وجمالها توازن ، ولا أراه يثير غير السخرية أن تصف جنوداً ذاهبين إلى القتال بأنهم أقمار .

ومثله أيضاً ، حين يصف السيف ، فيشبه من أصابته طعنة منه فأرعفته ، وأسالت دمه ، بأنك تحسبه عاشقاً يبكى على طلل ، والصورة هنا لا تستقيم ، وشتان مابين صريع فى حرب أونزال ، يفيض داخله بالقهر والذل والهزيمة ، وبين عاشق يفيض صبابة ، ويقف على ربع حبيبه ، يسترجع ذكريات مضت ، نشوى بالسعادة والرضا :

إذا الطعينُ تلقّاه وأرعفه حسبْتَه عاشقا يبكى على طلل

ونجد ذلك التناقص النفسى أيضاً حين يصف الماء يقطر من ذوائب شعر أسود جميل ، لامرأة خارجة من الحمام ، بأنه كالطل يسقط من جناح غراب ، وحتى مع افتراض أن الجارية كانت تقص شعرها على نحو « غلامى » ، وهى طريقة شاعت فى الأندلس زمناً ، على نحو ماعليه الحال فى عصرنا ، إلا أن لفظ الغراب لا يستخدم ، ولا يثير ، فى العصر الوسيط ، وحتى قريب من أيامنا ، وفى بوادينا حتى الآن ، غير التشاؤم والقلق ، وتوقع الشر .

فإذا تركنا الجانب السلبى من فنه ، إلى ماهو إيجابى وجديد عنده ، وجدناه فى قصيدة المديح الثالثة ، التى توجه بها إلى السلطان محمد الغالب ، وعرضنا لها فيما سبق ، يسير على نهج جديد فى نظمه ، لحظه ابن الخطيب نفسه ، فقدم لها بقوله : « ومن نزعاته العجيبة قوله ، وقد سبق إلى غرضه غيره » . ويقوم الجديد فيها على أن الشطرة الثانية من كل بيت ، فى القصيدة كلها ماعدا المطلع ، تتكون من جملة اسمية خبرها شبه جملة مقدم ، والمبتدأ مثنى مؤخر ، أو فعلية وفاعلها مثنى ، وفى الحالين يُبدل من المبتدأ أو الفاعل مضمونه مفردين معطوفا أحدهما على الآخر ، لايشذ فى ذلك ولامرة واحدة ، وهى ظاهر إن دلت على التمكن والمقدرة فإنما تدل فى الوقت نفسه على أن الصناعة بلغت عنده غايتها .

ويستخدم المحسنات البديعية قليلاً ، على غير عادة الشعراء فى عصره ، ونجد منها عنده « اللف والنشر » ، كما فى الأبيات التى يصف فيها غلاماً ، وذكرناها من قبل والطباق أحياناً ، ويستخدم الجناس نادراً .

ولم يشر أحد ممن ترجموا له أنه عَنى بالموشحات ، أو أبدع فيها شيئاً ، أو أعارها جانباً من اهتمامه ، وهى ظاهرة لافته للنظر ، فقد بلغ هذا الفن فى عصره ، والعصور التى سبقته ، قمة توهجه ، شيوعاً وفناً وإقبالاً ، ومن يدرى ، فربما قال فيها شيئاً ولم يصلنا .

● نونية أبى البقاء :

أروع شـــعره على الإطلاق ، وتجئ فى مقدمة القصـــائد التى عرضت لمثل هـــذا اللون من الأحـــداث ، والقـــاعدة النقـــدية تقرر : « إذا أراد الشاعر أن يبكينا فعليه أن يبكى أولاً » ، ومن الواضح أن أبا البقاء بكى صادقاً وعميقاً ، لأن قصيدته تثير الشجى فى نفس كل من يقرؤها أو يسمعها ، ولم تفقد شيئاً من جدتها وتأثيرها حتى يومنا ، وحين تعود إليها ثانية بعد قراءتها ، تحس كأنك تقرؤها للمرة الأولى ، لقد استطاع شاعر الأندلس أن ينقل إلينا تجربته كاملة ، فى إيقاع شجى ، ذى تأثير عجيب .

أول مايعرض لنا ونحن ندرس النونية إهمال المصادر الأندلسية التى بين أيدينا إهمالاً كاملاً لها ، لم تشر إليها من قريب أو بعيد ، فضلاً عن أن تأتى بها كاملة ، أو بأبيات مختارة منها ، رغم أنها ترجمت لأبى البقاء ، واختارت له بعضاً من أشعاره ، إذا كانت محددة عند ابن عبد الملك وابن الزبير ، فهى كثيرة ومتنوعة عند ابن الخطيب .

وكان المصدر الذى أوردها كاملة مغربياً ، وهو كتاب « الذخيرة السنية » ، لمؤلف مجهول ، ويتحدث عن فترة كان فيها بنومرين على أوثق الصلات بمملكة غرناطة ، فى حالى التحالف والاختلاف على السواء ، ونقلها لنا المقرى كاملة فى كتابيه « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » ، وكعادته كثيراً لم يشر إلى المصدر الذى نقل عنه ، وأرجح أنه نقلها عن الذخيرة أيضاً .

ومؤلف « الذخيرة » مجهول ، ولكننا نعرف أنه عاش فى عصر السلطان أبى

سعد المرينى ، وحكم من ٧١٠ إلى ٧٣١ هـ = ١٣١٠ — ١٣٣١ م ، أى أنه ألف كتابه بعد ستة وثلاثين عاماً ، على الأقل ، من وفاة أبى البقاء ، وأكبر الظن أنهما تعاصرا ، وسبق أن ألمحت فى هذه الدراسة إلى احتمال أن يكون أبو البقاء قد عبر المضيق إلى المغرب فى وقت بجهله ، وربما كان بعد إنشاد القصيدة ، شيخاً تجاوز الستين من عمره ، ولزمن كان قصيراً على التأكيد ، غير أنى لا أعتقد أنه لقى مؤلف كتاب « الذخيرة » ، لأنه فى هذه المرحلة لم يكن يعدو أن يكون طالباً فتياً يتردد على حلق الدرس ، ولعل الأقرب إلى التصور أن القصيدة بموضوعها المثير ، وإيقاعها الجميل ، سواء أكان صاحبها هو الذى حملها ، أم عبرت البحر بنفسها ، شقت طريقها إلى أسماع وقلوب جمهرة المسلمين فى الأندلس والمغرب على السواء .

ويذكر صاحب الذخيرة السنية أن أبا البقاء أنشدها بمناسبة نزول محمد الغالب سلطان غرناطة عن عدد كبير من القواعد والحصون الأندلسية لملك قشتالة عام ٦٦٥ هـ = ١٢٦٧ م ، وهى أحداث ثابتة تاريخياً ، أى أن أبا البقاء قالها وهو فى الخامسة والستين من عمره تقريباً . ومن المؤكد أن السلطان ضاق بها ، وعمل على حصارها ، فهى تندد بالقواعد التى سقطت على عهده فى يد المسيحيين ، وتستثير جمهرة المسلمين فى الأندلس وخاوجها ، لاستعادة ماذهب والدفاع عما يوشك أن يذهب ، والقواعد الكبرى التى ندبها فى قصيدته هى : إشبيلية ، وقرطبة ، ومرسية ، وشاطبة ، وجيان ، وكلها سقطت بين عامى ٦٣٥ و ٦٥٠ هـ = ١٢٣٧ — ١٢٥٢ م ، إلى جانب مئات من الحصون والقرى ، وإذن فهى تدينه دون أن تعرض له ، وتجعله مسئولا دون أن تذكر اسمه ، وليس ثمة شك فى أن أحفاده كانوا أحرص منه على عدم تداولها بين الناس ، وكان ابن الخطيب وزيراً أول لهم ، وليس بوسعه أن يضمن كتبه شيئاً لايرضون عنه ، ولا أرى سبباً آخر لإهمال ابن الخطيب لها ، رغم الترجمة المستفيضة ، والأشعار العديدة ، التى خص بها أبا البقاء ، ولا يرد فى الخاطر أنه لم يسمع بالقصيدة ، وهى جميلة

تسترعى الانتباه ، وتعلق بالذاكرة ، وكانت متداولة بين الناس ؛ وابن الخطيب ذواقة فى الشعر ، موسوعى الثقافة ، ومثلها لا يخفى عليه .

كان أبو البقاء مهيأ نفسياً وثقافياً لأن يبدع قصيدة حول هذه القضية ، بمثل هذا المستوى ، فقد درس على أستاذه ابن زرقون قصيدة ابن عبدون فى رثاء بنى الأفطس ، وعاصر ابن الأبار صاحب قصيدتى الاستصراخ ، وكل هذه القصائد درسناها من قبل ، وارتبط عاطفياً بمعظم المدن التى سقطت ، إن لم يكن بها كلها ، وله فيها ذكريات من أيام الطلب أو مابعدها ، فلا غرو أن تفجرت أبياته من نفس كليمة وفؤاد محزون .

استهل أبو البقاء قصيدته بتقرير قاعدة إنسانية مستمدة من واقع الحياة نفسها ومؤداها أن كمال أى شئ بداية نهايته ، مايكاد يبلغ ريعان شبابه حتى تدركه الشيخوخة فتضعفه وهنا على وهن ، حتى تسلمه إلى الفناء ، وهو أمر يصدق على الحضارات والأمم كما يصدق على الأفراد . فلا يغرن إنسانا جبروته مهما عظم ، ولا تبطرن أمة قوتها مهما بلغت ، فسبيل ذلك كله إلى فناء .. كله إلى زوال .

ويضرب الأمثال لما قرره : ذهب ملوك اليمن فما بقى لهم تاريخ ، وأتى الزمان على حصون إرم فما أبقى منها على حجر ، وذهب بحكم ساسان وكسرى ، وبملك سليمان ومدخرات قارون ، أتى عليهم جميعاً فما عادوا غير تاريخ يروى شاحباً ، أشبه بحلم رآه نائم فما يتذكر منه إلا بقايا باهتة ، وفجائع الدهر ألوان ، وكل ذهب بسبب ، وفنى فى ظروف تغاير الآخر ، ولكل حادث أحوال تخفف من وقعه ، أما فجيعة الإسلام فى الأندلس فقاصمة .

ويفصل ما أصاب الأندلس : لقد دُهيت الجزيرة بما لو سقط على أحد لذهب به ، أو على شهلان لهدّه ، لقد سعدت بالإسلام وارتقت ثم أصابتها العين ، وتوالت عليها البلايا ، وانحسر الإسلام عن أقطارها ومدنها ، عن بلنسية

ومرسية وشاطبة وجيان وقرطبة وإشبيلية ، وهى قواعد الإسلام الحصينة ، ومدنه الزاهرة .

ويصور أسف الناس الحزين على بلاد عمها الكفر ، وأقفرت من الإسلام ، وصارت مساجدها كنائس ، تزخر بالنواقيس والصلبان ، بعد أن كانت عامرة بالعلم والإيمان ، مما يبكى حتى الجماد من محاريب ومنابر ، ويذكر بقايا المسلمين فيما ظل لهم من مدن ، وغفلوا عن الأحداث فما يتعظون بها ، والعدو من حولهم متربص بهم ، ويحث أولئك الذين أطمانوا على دنياهم الواسعة ، فى مملكة غرناطة المزدهرة ، أن يكون لهم فى ذهاب إشبيلية عظة ، وكانت قبل دنيا عريضة من اللهو والترف واقتناص الملذات . إن فجيعة الإسلام فى الأندلس أنست الناس بهولها كل ما أصابهم قبل من كوارث وفى أى مكان ، وستعلو عن النسيان على امتداد الزمان .

ثم يتجه إلى مسلمى أفريقية ، أصحاب الخيل الضامرة الدريرة كأنها عقبان ، والسيوف المرهفة تلمع كأنها نيران ، يعيشون فى أمن ورغد ، وتظلهم أوطان عزيزة منيعة ، يسألهم مستنكراً : ألم تسمعوا بما أصاب الأندلس من كوارث ومحن أضحت حديث الركبان ، وقتلى الإسلام وأسراه على أرضه يئنون فما يستجيب لهم إنسان ، وهم أخوة لهم ، أليس فيكم أبى يثور لما أصاب قومه ، ويعينهم على دفع الشر ، ورد العدوان .

ويختم القصيدة بوصف ما أصاب المسلمين فى أحداثهم الرهيبة : أحال الكفرة عزهم ذلا ، وجعلوا أحرارهم عبيداً ، وتشابهت عليهم السبل فهم حيارى لا يدرون ما يصنعون ، ويفصل حالهم وهم يباعون رقيقاً ، يحال بين الأم وطفلها ، ويباع كل منهما لسيد ، وصبايا فاتنات جميلات ، فى زهوة الشباب ، يقودهن العلج للمكروه وقد أسرهن فى الحرب ، أو اشتراهن رقيقاً من السوق ، وكلهم يبكى ، فيذيب بكاهم القلوب حزنا وكمداً .

● نص القصيدة :

لكلِّ شيءٍ إذا ماتم نُقصانُ ... فلا يُغرُّ بطيبِ العيشِ إنسانُ
هى الأمورُ كما شاهدتُها دُوَلٌ ... من سرّه زمنٌ ساءتْه أزمانُ
وهذه الدارُ لا تُبقى على أحدٍ ... ولا يدوم على حالٍ لها شانُ
يمزقُ الدهرُ حتماً كلَّ سابغةٍ ... إذا نبتْ مشرفياتٌ وخرصان
وينتضى كل سيفٍ للفناء ولو ... كان ابن ذي يزنٍ والغمدُ غمدان
أين الملوك ذوو التيجانِ من يمنٍ ... وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ
وأين ماشاده شدّادُ فى إرمٍ ... وأين ماساسه فى الفرس ساسان
وأين ماحازه قارونُ من ذهبٍ ... وأين عادٌ وشدّادٌ وقحطان
أتى على الكل أمرٌ لا مرد لـه ... حتى قضوْا فكأن القوم ماكانوا
وصار ماكان من مُلْكٍ ومن مَلكٍ ... كما حكى عن خيال الطيف وسنانُ
دار الزمانُ على دارا وقاتله ... وأمّ كسرى فما آواه إيوانُ
كأنما الصعبُ لم يسهل له سببٌ ... يوما ولا ملك الدنيا سليمان
فجائعُ الدهر أنواعٌ منوعةٌ ... وللزمانِ مسراتٌ وأحزان
وللحوادث سلوان يسهّلها ... وما لِما حلَّ بالإسلام سلوان

●

دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاء له ... هوى له أحدٌ وانهد ثهلانُ
أصابها العينُ فى الإسلام فامتُحنتْ ... حتى خلتْ منه أقطارٌ وبلدان
فاسألْ بلنسية ماشأنُ مُرسيةٍ ... وأين شاطبةٌ أم أين جيّانُ
وأين قرطبةٌ دارُ العلوم ، فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمصٌ وما تحويه من نُزَهٍ ... ونهرها العذبُ فيّاضٌ وملآن
قواعدٌ كنَّ أركانَ البلادِ فما ... عسى البقاءُ إذا لم تبق أركانُ
تبكى الحنيفيةُ البيضاءُ من أسفٍ ... كما بكى لفراقِ الإلفِ هيمان

على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرتْ ولها بالكفر عمران
حيث المساجدُ قد صارت كنائس ما ... فيهنّ إلا نواقيسٌ وصُلبانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ ... حتى المنابرُ ترثي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهر موعظةٌ ... إن كنتَ في سِنَةٍ فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يلهيه موطنُه ... أبعدَ حمْصٍ تغر المرءَ أوطان
تلك المصيبةُ أنستْ ماتقدمها ... ومالها مع طولِ الدهرِ نسيان

●

ياراكبين عتاقَ الخيلِ ضامرةً ... كأنها في مجال السبقِ عقبانُ
وحاملين سيوف الهندِ مرهفةً ... كأنها في ظلامِ النقعِ نيرانُ
وراتعين وراء البحر في دعةٍ ... لهم بأوطانهم عز وسلطانُ
أعندكم نبأٌ من أهل أندُلس ... فقد سرى بحديث القومِ ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكمُ ... وأنتمُ يا عبادَ اللهِ إخوان
ألاَ نفوسٌ أبيّاتٌ لها هممٌ ... أما على الخير أنصارٌ وأعوان
يامن لذلةِ قومٍ بعد عزهمُ ... أحال حالهمُ كُفْرٌ وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهمْ ... واليوم همْ في بلادِ الكفرِ عبدانُ
فلو تراهم حيارى لا دليلَ لهمْ ... عليهمُ من ثيابِ الذل ألوان
ولو رأيتَ بكاهم عند بيعهمُ ... لهالَك الأمرُ واستهوتك أحزان
يارب أم وطفلٍ حيل بينهما ... كما تفرقَ أرواحٌ وأبدان
وطفلةٍ مثلِ حسنِ الشمسِ إذ طلعتْ ... كأنما هي ياقوتٌ ومَرْجان
يقودُها العلجُ للمكروه مكرهةً ... والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيران
لمثل هذا يذوب القلبُ من كمدٍ ... إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمان

● تعليق على القصيدة :

قُيض لمرثية أبى البقاءمن الشهرة والذيوع مالم يقيض لمرثية أخرى . وهى شهرة مرد ها الصدق الذى تحتويه ، وحرارة العاطفة التى تجرى بين أبياتها ، قالها مكلوماً يخاطب الأندلسيين من قومه ، والمسلمين أنى وجدوا ، ولم يتوجه بها إلى أمير ، ولم ينشدها فى بلاط ، ومع أن الجديد فى مضمونها قليل ، إلا أن هذا القليل يرجح فى ثقله وقيمته كل ماتضمه القصائد الأخرى ، لأنه يمس جانباً إنسانياً يستدر شفقة أقسى القلوب ، وأشدها جموداً وضراوة. وهو يفعل ذلك فى واقعية بسيطة مؤثرة ، ولعله شاهد بعض ، أو كثيراً ، مما وصف ، فهو يلتقط صوره من عمق المأساة ، تنم على ذلك بعض عباراته السهلة والصادقة فى الوقت نفسه ، مثل : « ولو رأيت بكاهم عندبيعهم . . . » ، فليس أقسى على الحر من أن يباع عبداً ، أووصفه للطفلة يقودها العلج ، أو الأم تباع لسيد وطفلها لسيد آخر ، فليس أقسى ولا آلم من فراق جبرى ، لا تعرف لها نهاية ، بين أم وطفلها ، تودعه وتعلم أنها قد لاتعود إلى رؤيته أبدا . ومنظر فتاة فاتنة ، لايد لها فى الحرب ، تساق للمكروه مكرهة دون أن تستطيع دفعاً لمغتصبها . ومثل هذه المشاهد الحزينة المؤثرة كانت تحدث على التأكيد فى أية معركة يخسرها المسلمون فى الأندلس ، ولكن أبا البقاء أول من عرض لها ، واتخذها سبيلا لإثارة حمية المسلمين فى الأندلس وأفريقيا على السواء .

وما عدا ذلك من معان شريك فيها لمن سبقوه وا فاقهم فى الإيجاز ، والبعد عن الحشو الممل ، وجاء فى قصيدته ذات الاثنين وأربعين بيتاً بكل المعانى ، وبأكثر منها ، التى جاءت فى مرثية طليطلة المجهولة القائل ، أو ماقاله ابن الأبار فى بلنسية ، وحين استعبر الماضى لم يحاول ، كما فعل ابن عبدون من قبل ، أن يجعل منها معرضاً لعلمه الواسع ، وإنما قنع بأمثلة قليلة ، فى أبيات محدودة ،

وأفكاره مرتبة ترتيباً بديعاً ، واستطاع أن يلون عباراته ، وأن يعطيها أيقاعاً يميزها عن سواها رغم تشابه المضمون ، وكانت هذه الحكم : تدور حول الاعتبار بما مضى ، خير مدخل مهد به الشاعر لموضوعه ، ثم انتقل منه إلى حادثه الخاص .

وأكد أبو البقاء ، شأن غيره فى هذا ، على الطباق النفسى والتصويرى فى القصيدة ، لتبدو المفارقة واضحة ومثيرة ، يصور ما كانت عليه المدن الذاهبة وما آلت إليه ، ويبرز ماتعرضت له المقدسات الإسلامية من امتهان : المساجد التى أصبحت كنائس ، والنواقيس التى حلت مكان الآذان ، والأعراض التى استبيحت علانية . وعبر القصيدة كلها لا تجد بيتاً قلقاً ، ولا كلمة زائدة ، ولا لفظاً تابياً ، وكان أبو البقاء مستجيباً فى إنشاد القصيدة لإحساس ذاتى غامر ، ومن هنا خلت أبياته من أية صناعة لفظية ، وكانت طابع كل من سبقوه .

●

وحين طار ذكر هذه القصيدة ، وتداولها الناس فى الأندلس وأفريقيا على السواء ، ووجدوا فيها صدى واقعهم صادقاً أضافوا إليها ، مع الزمن ، أبياتاً تتحدث عن مدن أخرى استغلب عليها الكاثوليك ، مثل بسطة ، والمرية ، ومالقة ، ووادى آش ، وغرناطة ، وكلها سقطت فى أيديهم بعد موت أبى البقاء . وهى أبيات ، إلى جانب استحالة أن يكون أبو البقاء قائلها تاريخاً ، دون القصيدة روحاً وفناً وإثارة ، ولحظ ذلك المقرى فى نفح الطيب ، فعقب على القصيدة بعد أن أتى عليها كاملة : « انتهت القصيدة الفريدة ، ويوجد بأيدى الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرها مما أخذ من المدن بعد موت صالح بن شريف . وما اعتمدته منها نقلته من خط يوثق به على ما كتبته ، ومن له أدنى ذوق علم أن مايزيدون فيها من الأبيات ليست تقاربها فى البلاغة ، وغالب ظنى أن تلك الزيادة لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس ، إذ كان أهلها يستنهضون همم

الملوك بالمشرق والمغرب ، فكأن بعضهم لما أعجبته قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات ، وقد بينت ذلك فى « أزهار الرياض » فليراجع » .

ولكن نسخة « أزهار الرياض » التى بين أيدينا ليس فيها أية إشارة إلى هذه الأبيات ، ونحن ندين بالفضل فى معرفتها إلى العالم المغربى الأستاذ عبد الله كنون ، فقد نشرها فى « صحيفة المعهد المصرى » فى مدريد ، على ما أشرنا إليه فى البدء ، نقلاً عن قطعة مخطوطة متداخلة من أزهار الرياض والنفح معاً ، توجد ضمن مجموع قديم فى خزانته الخاصة. فالأبيات التالية جاءت بعد البيت : « وأين حمص وما تحويه من نزه . . . » فى القصيدة الأصلية :

وأين غرناطةُ دار الجهاد ... فكم أسدى الشدى وهم فى الحرب فرسانُ (١)
وأين حمراؤها العليا وزخرفها ... كأنها من جنان الخلد عدنانُ
والماءُ يجرى بساحات القصور بها ... قد حفَّ جدْولها زهرٌ وريحان
وأين جامعها المشهور كم تُليتْ ... فى كلِّ وقتٍ فيه به آىٌ وقرآن
وعالمٍ كان يهدى للجهول هدًى ... مدرّس وله فى العلم صبيان
وعابد خاشعٍ لله مبتهلٌ ... والدمعُ منه على الخدين طوفان
ووادى شلين يحكى فى تحنُّثه ... سيوف هند لها فى الجو لمعان
وأين بسطة دار الزعفران فهل ... رأى شبيها لها فى الحسن إنسان
كذا المرية دار الصالحين فكم ... قطب بها، علمُ غوثٍ له شان
وأين مالقةٌ مرسى المراكب كم ... أرستْ بساحلها فلكٌ وغربان
وكم بداخلها من شاعرٍ فطنٍ ... وذى فنونٍ له حذْقٌ وتبيان
وكم بخارجها من منزهٍ فرجٍ ... وجنة حولها زهرٌ وبستان
وأين جارتها الزهرا وقبتها ... وأين ياقوم أبطالٌ وفرسان

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعلها أسد الشرى ، ويبقى المعنى مع ذلك غير تام .

وكم شجاعٍ زعيمٍ فى الوغى بطلٌ   بدا له فى العدا فتكٌ وإمعـــان
وكم جُدلتْ يدُه من كافر فغدا   تبكيه من أرضه أهلٌ وولدان
ووادى آش غدتْ بالعـــزّ عامرةً   وردّ توحيدها شركٌ وطغيــانُ

وجاء فى المخطوطة نفسها زيادة بيت بين قوله « تلك المصيبة » وقوله « ياراكبين » ونصه :

ياأيها الملك الحمراءُ رايتــهُ   أدركْ بسيفك أهل الكفرِ لا كانوا

وفى الختام ألحق بالقصيدة الأبيات الثلاثة التالية :

هل للجهاد بها من طالب فلقد   تزخرفت جنة المأوى بها شان
والشوق للحورِ والولدانِ نحوكما(٢)   فازت لعمرى بهذا الفضل شجعان
ثم الصلاة على المختار من مضرٍ   ماهب ريحٌ الصبا واهتز أغصان

ويذكر الشهاب الخفاجى ، المتوفى عام ١٠٦٩ هـ = ١٦٥٨ م ، دون أن يشير إلى المصدر الذى اعتمد عليه ، أن شاعراً اسمه يحيى القرطبى شهد آخر صفحة من تاريخ الدولة الإسلامية فى الأندلس ، فنظم قصيدة على نسق قصيدة الرندى فاختلطت بها ، غير أنى لم أعثر للشاعر أو قصيدته على أثر فيما هو منشور من المصادر الأندلسية .

● بين التأثير والتأثر :

إذا تركنا ماللقصائد الأندلسية الشبيهة من صدى فى نونية أبى البقاء ، وسبقته أو عاصرته ، فمن المفيد أن نذكر أيضاً أن أنغامها وجوها يعكس صدى ، لا يقل وضوحاً ، لنونية أبى الفتح البستى ، المتوفى عام ٤٠١ هـ = ١٠١٠ م ، وهى

---

(٢) كذا فى الأصل .

مثل قصيدة أبى البقاء ، شرقت وغربت على أيامها ، ونالت شهرة عريضة ، وسجلتها مخطوطات عديدة ، وكانت موضع شروح كثيرة ، واتفقا فى عدد من الخطوط الرئيسية ، وإن اختلفا فى الدافع والمناسبة ، ومطلع قصيدة أبى الفتح :

زيادةُ المرء فى دنياه نقصانُ وربحهُ غيرَ محضِ الخيرِ خسرانُ

كما أن أحمد شوقى ، المتوفى عام ١٩٣٢ ، عارض قصيدة أبى البقاء فى نونيته الرائعة ، التى قالها فى ذكرى محنة دمشق على يد الاستعمار الفرنسى ومطلعها :

قمْ ناجِ جلّقَ وانشدْ رسمَ من بانوا مشتْ على الرسمِ أحداثٌ وأزمانُ

ولكن أمير الشعراء ، كما هو متوقع منه ، حلق فى سماء الشعر عالياً ، وترك الكل دونه على الأرض ، بما فيهم أبو البقاء .

ولم تقف شهرة مرثية أبى البقاء عند العالم الإسلامى وإنما جازت شهرتها إلى العالم الكاثوليكى فى الأندلس ، ويرى الدكتور ليون كارلونيرو إى سول Léon Carlonero y Sol ، وكان يعمل أستاذاً للغة العربية فى جامعة إشبيلية فى أواخر القرن الماضى ، أن مرثية الشاعر الإسبانى خورخى منريكى Jorge Manrique (١٤٤٠ — ١٤٧٩ م) فى رثاء والده ، متأثرة إلى حد كبير بقصيدة أبى البقاء الرندى ، وأن الشاعر الكاثوليكى لابد أن يكون قد عرف قصيدة الشاعر المسلم ، فى نصها العربى أو مترجمة إلى الإسبانية ومتداولة شفاها ، مع مراعاة الفارق فى الدافع إلى كل منهما ، ويشاركه فى هذا الرأى خوان باليرا Juàn Valera من كبار أدباء الإسبان فى العصر الحديث (١٨٢٤ — ١٩٠٥ م) ، وقد قام باليرا بترجمة مرثية أبى البقاء إلى اللغة الإسبانية ، نقلا عن الترجمة الألمانية ، على نفس الوزن الذى نظمت فيه أشعار خورخى منريكى .

ونطرد عابرة إلى قصيدة الشاعر الإسبانى يتبين منها المرء أن ثمة أمرين كان فيهما مقلدا للشاعر العربى على التأكيد : الأول هو الحديث عن تلون الحياة ، وارتفاعها وانخفاضها، وتعاور الحزن والسرور على الانسان ، وثانيهما استمداده العبرة من التاريخ واتخاذه شاهدا ، ولو أن الشاعر الإسبانى استمدها من تاريخ أمته قديماً وعلى أيامه ؛ من ملوك الرومان والقوط فى الماضى ، والأسبان المعاصرين له ، على حين انحصرت إشارات الشاعر العربى فى ملوك الشرق القديم . والجدير بالذكر أن عدد فقرات القصيدة الإسبانية تساوى عدد أبيات قصيدة أبى البقاء . وبعيد عن التصور أن الأمر جاء صدفة واتفاقاً .

ولكى تكون لدى القارئ العربى فكرة عن قصيدة خورخى منريكى ، أورد ترجمة لمطلعها إلى العربية :

●

نبِّهِ النفسَ النائمة ،
وأيقظِ العقلَ وأشعْ فيه النشاط ،
متأملاً ،
كيف تمضى الحياة ،
وكيف يجىء الموت
صامتاً .
يا للسرور ، كم هو خفيف فى ذهابه ،
مؤلمٌ عند تذكر ساعاته ،
وكيف يبدو لنا
أن أىَّ زمنٍ مضى
خيرٌ من الحاضر .
وفى لحظةٍ ، نرى الحاضرَ ماضيا ،

ومنتهـــيـــاً ،
ولو حـكمنا فى فطنـة
لاعتبرنـا مـا فى ضمير الغيب
مـاضيـــاً .
لا ينخدعنّ أحـــدٌ أبـــداً
ظـانـاً أنّ الدوام حـتم
لمـا يؤملـــه ،
لأن مـارآه لم يـدم ،
وكل شيء عليـه أن يمـضى
عبر نفس الطريق ! .
حياتنـا أنهـــار
تمضى لتصب فى بحـر ،
هـو المـوت .
إلى هناك يذهب السادة ،
تـوّاً لـكى يفنـوا
ويتـــلاشـوا .
هناك الأنهار الفيـاضة ،
والأنهـار الجـارية ،
والأنهار الضحلـة ،
وصولها تصبح متساوية ،
كالذين يعيشون من سواعدهم
يتساوون مـع الأغنياء .

عاشت مملكة غرناطة زهاء قرنين من الزمان بعد عصر أبى البقاء ، وبها لاذت الحضارة الإسلامية فى شبه الجزيرة ، لكن الجماهير فقدت حيويتها كجماعة مؤثرة ، وإن تميزت ببطولات فردية مناضلة ، تحاول بعزم أن تؤخر النهاية القاصمة ، وفقدت القيادة الموجهة الحازمة ، فكان الأمراء والحكام دون مستوى الأحداث تفكيراً وشجاعة وخلقاً وعناداً فى النضال ، يستخدمون العدو لتحطيم بعضهم البعض ، ويشترون بخيانة أمتهم عروشاً صغيرة ذليلة ؛ وعبر هذه الفوضى الغامرة كان من الطبيعى أن يكون هناك من يأسى لحال الإسلام فى الأندلس ، يندب حاله وينعى أيامه ، لكن لم يصلنا من ذلك القليل ، أو على التحديد لم تصلنا إلا مرثية واحدة كانت مجهولة تماماً ، وسوف ندرسها فى الفصل التالى .